الفصل الخامس

الثقافـــة والسياســـة

obeikandl.com

obeikandl.com

١- الثقافة والسياسة

هناك تصور شائع أن الثقافة والسياسة عالمان متعارضان. فالثقافة لاشأن لها بالسياسة وإلا حدَث تسييس الثقافة، والسياسة لا شأن لها بالثقافة وإلا حدَث تثقيف السياسة. الثقافة عمل النخبة والسياسة حركة الجماهير، الثقافة اهتمام العلماء والسياسة حرفة السياسيين، الثقافة للخاصة والسياسة للعامة، الثقافة للأقلية والسياسية للأغلبية، الثقافة نظر وبحث عن الحقيقة، والسياسة عمل وتحقيق للمصلحة، الثقافة ميدان الصدق والسياسة عالم الكذب. وكيف تجتمع الحقيقة والزيف، الصراحة والنفاق، الآخرة والدنيا؟

وهذا تصور مزدوج للحقيقة التي تجمع بين النظر والعمل، بين العلم والوطن، يقوم على تطهر وترفع ورغبة في الوصول إلى المطلق الذى لاشأن له بالنسبى، والتعلق بالأصول التى لا شأن لها بالفروع. وربما يقوم هذا الفصل بين الثقافة والسياسة على رغبة في السلامة والاطمئنان خلف الثقافة أو على الرغبة في الوصول إلى السلطة بأى ثمن باسم السياسة. فالمثقف هنا يكتفي بأضعف الإيمان، الإعلان عن النوايا، وملأ الفراغ بالفكر، والوقت بالعلم، والجامعة بالنظريات، والورق الأبيض بالحبر الأسود. والسياسى يشاغب ويناور ويتحالف مع الشيطان من أجل الوصول إلى السلطة.

وتاريخ الثقافة وحركات التغير الاجتماعى يدحض هذا التصور الثنائى. ويبين أن الثقافة سياسة غير مباشرة، وأن السياسة ثقافة بلا جذور، أن الثقافة سياسة على مستوى النظر، وأن السياسة ثقافة على مستوى الممارسة. فهناك ما يسمى بالثقافة السياسية، التمهيد للسياسة بالثقافة، وتحقيق الثقافة في السياسة. وبدونها تصبح الثقافة منعزلة عن الواقع الذى تعمل فيه، وتصبح السياسة مجرد غوغائية ديماجوجية، نفعية وارتزاق، مجرد قوة وتسلط.

البيان ١٩٩٦/٩/٢.

ويشهد تاريخ الفكر السياسى على ذلك في الغرب والشرق ولدينا فى الماضى والحاضر. فقد كانت عظمة فلاسفة التنوير فى الغرب، فلاسفة الثورة الفرنسية، روسو، ومونتسكيو، وفولتير، ودالامبير، وديدرو أنهم مهدوا للثورة الفرنسية بآرائهم فى الحرية والإخاء والمساواة والعدالة وحقوق الإنسان والمواطن والقانون والدستور والفصل بين السلطات. وانتشرت هذه الثقافة السياسية خارج فرنسا، فى ألمانيا عند هردر ولسنج وكانط، وفى إيطاليا عند مازينى، وفى انجلترا عند لوك وهيوم، وفى أمريكا عند توماس بين، وفى روسيا فى الحركة السلافية. فتغيير العقول والأذهان يسبق تغيير المجتمعات والنظم السياسية.

وقد قام رواد النهضة العربية بالجمع بين الثقافة والسياسة. كان الهدف من التنوير إنارة العقول وتحريك الأذهان كمقدمة لتغيير المجتمعات والنظم السياسية. فقام الأفغانى أشهر ممثل للإصلاح الدينى بإعادة فهم العقائد من أجل المقاومة، مقاومة الاستعمار فى الخارج والقهر فى الداخل. ورد على الدهريين من أجل تنشيط العقيدة وربط العالم بالألوهية. ونقد عقيدة القضاء والقدر بمعنى التواكل والتقاعد والتخلف والاستكانة، وأعاد تفسيرها بمعنى الشجاعة والإقدام والرضا بالموت والاستشهاد. وأبرز رابطة الأخوة بين المسلمين التى تفوق رابطة الجنس والقومية. ومن أفكار الأفغانى قامت الثورة العرابية فى مصر وتأسست معظم الأحزاب الوطنية. ومازالت الحركة السلفية أحد الروافد الأساسية للحركة الوطنية خاصة فى مصر والمغرب العربى.

وأسس الطهطاوى فى مصر، وخير الدين فى تونس الدولة الوطنية الحديثة فى "مناهج الألباب" وفى "أقوم المسالك". وتأسس الفكر السياسى الليبرالى الحديث الذى على أساسه قامت الدول الوطنية: البرلمان، والدستور، وتعدد الأحزاب، وحرية الصحافة، وتعليم البنين والبنات، والعمران الذى يشمل الزراعة والصناعة والهندسة. "فليكن هذا الوطن مكانا لسعادتنا أجمعين، نبنيه بالحرية والفكر والمصنع". ومازالت هذه الأفكار بالرغم من وضع نهاية للدولة الليبرالية بعد

الثورات العربية الأخيرة تعبر عن واقع فعلى وممارسات سياسية دفاعا عن حرية المواطن، وحقوق الإنسان، وديموقراطية الحكم، وعدالة التوزيع. وما زالت أفكار أحمد لطفى السيد وعلى مبارك وطه حسين ومحمد حسين هيكل والعقاد تجد لها صدى فى عقول الناس، وتعبر عن احتياجاتهم وأشواقهم.

وشارك فى ذلك رواد الفكر العلمى، شبلى شميل، وفرح أنطون، ويعقوب صروف، وسلامة موسى، وزكى نجيب محمود دفاعا عن حرية الفكر كمقدمة للدفاع عن الحرية السياسية، وعن حرية الفرد كمقدمة لديموقراطية الحكم، وعن المعذبين فى الأرض، والقرية الظالمة دفاعا عن العدالة الاجتماعية. وكما قامت ثورة عرابى إثر تعاليم الأفغانى، وقامت ثورة ١٩١٩ بفضل الفكر الليبرالى، قامت الثورات العربية بداية بثورة ١٩٥٢ بفضل الأفكار الوطنية والاشتراكية التى روج لها الفكر العلمى.

وإن مراجعة الإيديولوجيات السياسية المعاصرة مثل الرأسمالية، والاشتراكية، والقومية بل والصهيونية لا يجد فرقا بين الثقافة والسياسة. فقد قامت الرأسمالية كنظام سياسى على الليبرالية كتيار فكرى. كما قامت الشيوعية والاشتراكية كنظام سياسى على الأفكار الاجتماعية حول العدالة والمساواة والحقوق كأفكار فلسفية. وتأسست القومية كنزعات سياسية على أفكار القوم والجنس واللغة والتاريخ والأصالة والعودة إلى الجذور التى حملها الفلاسفة. بل إن الصهيونية قبل أن تتجسد فى دولة كانت فكرا وثقافة وتراثا فى أحلام بعض المفكرين القوميين اليهود الغربيين خاصة فى روسيا وأوربا الشرقية.

وإن تراثنا القديم كله الذى ترسّب فى وعينا القومى كان فى البداية ثقافة سياسية. وما زال يقوم بهذا الدور فى اللا وعى القومى حتى الآن. وقد ظهر ذلك بوضوح فى الفرق الإسلامية وهو الشكل الثقافى للأحزاب السياسية. السنّة والشيعة، المعتزلة والأشاعرة، الخوارج والمرجئة ثقافة سياسية، أحداث سياسية تحولت إلى ثقافة، وثقافة تحولت إلى سياسة. الخلاف حول الإمامة خلاف سياسى تحول إلى

ثقافة، التعيين بالنص أو الاختيار الحر من الناس. والخلاف حول عدم التطابق بين الإيمان والعمل تحول إلى ثقافة ونظريات بين الخوارج، وحدة النظر والعمل، والمرجئة، إرجاء العمل على الإيمان، والمعتزلة، المنزلة بين المنزلتين.

لقد ارتبط التوحيد بالعدل، والعقيدة بالشريعة، والتصور بالنظام وكما تقول الحركات الإسلامية المعاصرة فى "الحاكمية" نظرا للارتباط الجوهرى بين الثقافى والسياسى. ونشأت مؤسسات ونظم بأكملها لتحقيق هذه الوحدة العضوية بين الاثنين مثل "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر"و "الحسبة" للرقابة على الحياة العامة وتطبيق القانون ورعاية مصالح الناس دون غش أو تدليس. ومازال الإسلام السياسى المعاصر يمثل أحد الأشكال الموروثة للصلة بين الثقافة والسياسة وكما عبرت عن ذلك بعض الأدبيات الوجودية المعاصرة باسم "الالتزام".

والسؤال الآن: من الذى يقوم بهذه الوحدة العضوية بين الثقافة والسياسة؟ من هو المثقف السياسى أو السياسى المثقف؟ من هو العالم المواطن، والمواطن العالم؟ من هو الذى يمهد للسياسة بالثقافة ويخرج الثقافة إلى أرض الواقع، ويكتشفها فى ممارسات الناس وحركات الجماهير؟

إن الشائع الآن هو تبرير السياسة باسم الثقافة كما يفعل مثقف السلطة، يجعل السياسة هى الأصل، والثقافة هى الفرع. السياسة غاية، والثقافة وسيلة، والغاية تبرر الوسيلة. فإذا ما تغيرت السياسات تغيرت التبريرات. ففى ذروة المد القومى العربى، الدولة القطرية جزء من الأمة العربية. وفى ذروة المد القطرى الوحدة العربية أحلام وتمنيات. وفى ذروة المقاومة للعدو الصهيونى، الإسلام عقيدة وجهاد، وفى عصر المصالحة والسلام، الإسلام دين محبة وسلام. هنا يفقد المثقف احترام السلطة له بالرغم من استعمالها له. كما يفقد احترام الجماهير له بالرغم من كتابته لها وترأس صحفها.

وقد ينشأ تبرير الثقافة باسم السياسة كما هو الحال فى الدعاية السياسية وكما حدث فى المقررات القومية فى الجامعات العربية. فهى ثقافة موجهة لحشد

الجماهير وإعادة تربيتها ثقافيا باسم السياسة. فأثناء المد القومى العربى فى الستينات كانت الثقافة الاشتراكية والأدب الاشتراكى هو الشائع والذى عليه تتربى الجماهير من خلال أجهزة الإعلام والمؤسسات التربوية. وفى انحسار المد القومى الاشتراكى وسيادة المد الإسلامى تتحول أجهزة الدولة إلى أدوات لنشر الثقافة الإسلامية المحافظة من أجل جذب الجماهير وحمايتها من الانخراط فى الجماعات الإسلامية.

فإذا حاول المثقف العضوى بالتعبير المعاصر الالتزام بالثقافة كسياسة وبالسياسة كثقافة فإنه يجد نفسه محاصرا بين الخط الأحمر الذى تضعه السلطة والذى لا يمكن تجاوزه والخط الأحمر الذى تضعه الجماهير والذى لا يمكن النزول عنه. فيجد نفسه محاصرا بين المطرقة والسندان، بين واجبات السلطة وحقوق الجماهير، بين العمل فى إطار الشرعية ومن خلال قنواتها ورعاية مصالح الناس.

يستطيع الأديب استعمال الرمز فى الرواية والقصة والمسرحية والشعر. ويستطيع المفكر أن يترجم ويشرح ويعرض أفكار الآخرين، وأن يتحدث على لسان الفلاسفة. وناقل الكفر ليس بكافر. ويستطيع الفيلسوف الاكتفاء بعالم المثال دون إعطاء الأمثلة الآنية فى الزمان والمكان، وأن يعبر عن المعانى الخالصة دون الوقائع المتعينة، وكما هو الحال فى الأمثال العامية "الكلام لك، واسمعى ياجاره".

ومع ذلك، هناك الحد الأدنى من الالتزام الثقافى والسياسى، الخط الأحمر المتبادل، من أعلى ومن أدنى للسلطة وللجماهير، دون الخروج على السلطة أو خيانة الجماهير. وهى معادلة صعبة، وميزان يصعب تعادل الكفتين فيه. فقد تميل الكفة مرة إلى أعلى نحو السلطة فتفرح وتغضب الجماهير، ومرة إلى أسفل فتغضب السلطة وتفرح الجماهير. ويمكن بالمران اكتساب مهارة الالتزام الثقافى والسياسى وتعدد أشكال التعبير.

وما لا يؤخذ كله لا يترك كله. والتدرج فضيلة. عرفها الشرع قديما فى تحريم الخمر، وعرفتها السياسة حديثا فيما يعرف بالخطوة خطوة. كما عرف الأنبياء نفس الطريقين: الأول طريق المسيح الذى يعلن عن الحق كله فى مواجهة

الرومان واليهود كما فعل يوحنا المعمدان، وتكون النتيجة الاستشهاد والبقاء رمزا للبطولة والفداء وكما فعل الحسين. والثانى طريق محمد بن عبد الله الذى يواخى بين الأوس والخزرج، بين المهاجرين والأنصار، بين المسلمين وأهل الكتاب، بين الإسلام والحنيفية، دين إبراهيم، من أجل تحقيق المصالح العامة، ووحة جزيرة العرب كدولة وقاعدة لوحدة العالم قبل الانتشار شرقا للقضاء على إمبراطورية الفرس، وغربا للقضاء على إمبراطورية الروم.

الثقافة والسياسة عمل على الأمد الطويل بعيدا عن آنيات السياسة. وإعادة بناء الثقافة السياسية قد يكون أحد الحلول لأزمتنا الراهنة.

obeikandl.com

٢- العلم والدين والثقافة

هناك ثلاثة نماذج فكرية فى حياتنا: العلم والدين والثقافة تجسدت فى ثلاث شخصيات كما يعبر عن ذلك عبد الله العروى بالصورة: المقبّع، والمعمّم والمطربش، الخواجة والشيخ والأفندى. وفى هذه النماذج الثلاثة تتحدد وحدة الشخصية أو تعددها، تآلفها أو تنافرها.

وقد عرفت الثقافة العربية منذ أقدم العصور الوحدة العضوية بين هذه الأنماط الفكرية الثلاثة. عرفتها حضارات مصر وبابل وآشور وكنعان. كما عرفتها حضارات الشرق القديم فى الهند والصين وفارس قبل اليونان.

فقد ارتبطت الفلسفات بالعلم، لافرق بين علوم طبيعية وعلوم رياضية، بين العالم والحكيم. وقد تراكم ذلك فى الثقافة الشعبية فى مفهوم الحكيم الذى يعنى الطبيب. كما خرج كلاهما من الدين. فلا فرق بين الدين الصينى والفلسفة الصينية والعلم الصينى. وكذلك الأمر فى الهند وفى مصر. فارتبط التحنيط بعقيدة خلود البدن. كما ارتبطت الهندسة المعمارية وبناء الأهرامات بخلود الروح. وقد استقر ذلك أيضا فى الثقافة الشعبية حتى الآن حتى أصبح العالم هو رجل الدين.

ثم تعددت هذه النماذج الثلاثة وتنافرت بل وتضاربت ونفى بعضها بعضا. وأحيانا تجاورت وتماست حتى برزت ازدواجية الثقافة والفكر. واشتد الخصام بينها، كل نموذج يعتبر نفسه هو الفرقة الناجية، ويكفّر النموذجين الآخرين. وعلى أحسن تقدير تجمع ثقافة بين نموذجين على التجاور أو التماس منتقلة من أحدهما إلى الآخر دون وحدة عضوية بين الاثنين.

وطبقا لحساب الاحتمالات بين الدين والعلم قد يوجد علم بلا دين أو دين بلا علم. فالعلم بلا دين وقوع فى النسبية والشك واللا أدرية، وهو ما يسميه المحافظون

البيان ١٩٩٦/٩/٢٣.

obeikandi.com

المادية والإلحاد. وقد كان أشهر نموذج على ذلك نظرية التطور لداروين والوضعية الاجتماعية أو الوضعية المنطقية فى الغرب. صحيح أن العقل البشرى يتحرر من كل أحكام مسبقة، وبالتالى يتقدم العلم. ولكن التقدم المستمر للعلم له حدود من داخل العلم. فقد يورث التردد والحيرة والشك. وله حدود من خارج العلم فى حدود التقدم والعمران والرفاهية والاستهلاك وارتفاع مستوى المعيشة والذى قد ينقلب إلى النقيض كما هو الحال فى الغرب المعاصر.

ونظراً لفصل العلم عن الدين، انفصلت أحكام الواقع عن أحكام القيمة. فاستخدم السلاح النووى وألقيت القنابل الذرية على اليابان. وظهرت قضايا التلوث وموت الطبيعة والكائنات الحية بنفايات المصانع وعادم السيارات والطائرات. وأصبح العلم بناءً وتدميرا فى نفس الوقت، حياة وموتا، نهضة وسقوطا، تقدما ونكوصا.

والدين بلا علم مجرد إمكانية بلا تحقق، غايات بلا وسائل، طاقة بلا حركة، مشروع بلا تاريخ، يتحول الدين حينئذ إلى مجموعة من العقائد الغيبية والطقوس والرسوم والشعائر الخارجية والمؤسسات الدينية التى تبغى الترأس والتسلط. بل ويعادى العلم إذا ما نشأ لينازع الدين بعض اختصاصاته مثل تفسير نشأة الكون وطبيعة النظم الاجتماعية وأسس القوانين البشرية. كما يعادى الثقافة التى قد تتجرأ على سلطة رجال الدين، وترفع شعارات حرية الفكر وحق الاجتهاد وحقوق الإنسان. ويحدث ذلك فى كل حضارة فى لحظات الضعف وسيادة الاتجاهات المحافظة، الكنيسة فى العصور الوسطى وإبان محاكم التفتيش، والمحاكم اليهودية، وفتاوى ابن الصلاح التى تحرم الفلسفة والمنطق وباقى علوم الحكمة. الدين بلا علم موت للدين، وعزلة عن الدنيا، تجعل الناس يفرون إلى العلم والثقافة كبديلين عنه.

والثقافة بلا دين أو علم قد تكون مجرد بحث نظرى خالص، يطول أويقصر، يصيب أو يخطىء. تصبح الحقيقة المرجوة غاية فى ذاتها، تصورات خالصة للنخبة لا تستطيع الجماهير فهمها أو تحقيقها أو الاستفادة منها فى حياتهم العملية. قد

تتحول إلى عموميات وإلى فلسفات نظرية لا تقدر على تحليل الجزئيات والسيطرة على قوانين الطبيعة. فالدين هو القادر على تحويل الثقافة من مستوى النظر إلى مستوى العمل. والعلم هو القادر على تحويل الدين من مستوى الكليات إلى مستوى الجزئيات.

فإذا استحال انفراد الدين عن العلم، والعلم عن الدين، والثقافة عن الدين والعلم معا فكذلك يستحيل ازدواج العلم والثقافة بلا دين، والعلم والدين بلا ثقافة، والدين والثقافة بلا علم.

ففى الغرب الحديث ازدوج العلم والثقافة بلا دين نظراً لظروف الغرب وطبيعة الدين الذى تكوّن فيه وهو المسيحية الغربية. فقد قامت على الثقافة الرومانية وداخل الإمبراطورية الرومانية بما تمثل من قيصرية، وتماثيل، ورسوم، وأساطير، وآلهة إبان العصر الوسيط. ومنذ الإصلاح الدينى الذى رفض هذه الأشكال وفضّل التقوى الباطنية، ومنذ عصر النهضة الذى أعلى من شأن الإنسان، ومنذ القرن السابع عشر الذى فضّل التعامل بالعقل مع الطبيعة مباشرة، ومنذ القرن الثامن عشر الذى أحل الثقافة محل الدين، والسياسة محل العقائد، والدولة بديلا عن الكنيسة تجاور العلم والثقافة واتحدا ضد الدين وعلى أنقاضه، الطبيعة والعقل ضد الكتاب المقدس وسلطة القدماء والتاريخ والروايات التى لم تصمد أمام النقد الحديث. ثم غالى العلم فى الوضعية وعادى الثقافة النظرية، وتفرد العلم، وانفرد بالحقيقة كلها. وهى الحقيقة الطبيعية الكمية التى تخضع للقياس. وتنافرت النماذج الثلاثة فى الغرب: العلم والدين والفلسفة، وكأن الإنسان لا يستطيع أن يكون عالما ومؤمنا وفيلسوفا فى آن واحد. فتجزأت الحقيقة، وتضاربت الأجزاء واحتار الأوربى أيها يختار؟ فاختارت الأقلية الدين، وتنازعت الأغلبية الحيرة بين العلم والثقافة.

وفى اليابان الحديث ازدوج العلم والدين بلا ثقافة. وقد خرج اليابان الحديث فى عصر ميجى من التقاليد القديمة إلى العلم الغربى الحديث، دون أن يجد فى أحدهما بديلا عن الآخر. وآثر اليابان تجاور القديم مع الجديد، الدين مع العلم، الدين

فى الحياة الخاصة، والعلم فى الحياة العامة. الدين لأعياد الأسرة والأعياد الوطنية، والعلم للحياة المهنية فى الصناعة والتجارة والإدارة. وينتقل اليابانى من أحدهما إلى الآخر دون أن يشعر بالتناقض أو التنافر. يذهب إلى المعبد ويستدعى الأرواح ويقرأ الكف ويُطعم بوذا فى أيام العطلة والأعياد، ويذهب إلى المصنع الآلى ويتعامل مع آخر تطورات العلم الحديث بالحساب والعقل والمادة. ولا يفكر فى احتمال وجود علاقة بين الاثنين أو نقد أحدهما بالآخر كما تفعل الثقافة. لذلك غابت الثقافة، وضعفت العلوم الإنسانية، وغاب الفكر اليابانى إلا من ترشيد للبوذية وإعادة توظيف لقيمها وأخلاقها وروحها فى الصناعة والتجارة مثل: العمل، والإخلاص، والتضحية وروح الجماعة والشهادة أو الانتحار فى حالة الإحساس بالإثم وعدم رعاية الصالح العام أو تجاوز الأعراف والتقاليد.

وفى حياتنا المعاصرة، نحن العرب، ازدوج الدين مع الثقافة وندر العلم. فالدين هو ما ورثناه عن القدماء وانغرس فى نفوسنا منذ إبراهيم عليه السلام حتى لقد وُصفت الثقافة العربية بأنها ثقافة دينية بالأساس أما الثقافة فيها فوافدة من اليونان. والعلم هو احتكار للغرب الحديث وحده. ثم نشأت العلوم الإنسانية حول هذا التراث الدينى سواء العلوم العقلية النقلية: الكلام والفلسفة والتصوف وأصول الفقه أو العلوم النقلية الخالصة: القرآن والحديث والتفسير والسيرة والفقه. كما نشأت العلوم العقلية الخالصة: الرياضية مثل: الحساب والهندسة والموسيقى والفلك؛ والطبيعية مثل: الطبيعة والكيمياء والفلك والطب والنبات والحيوان والصيدلة والمعادن وعلوم البحار، والإنسانية مثل: اللغة والأدب والجغرافيا والتاريخ. ولم تستمر فى وجداننا إلا العلوم النقلية. فهى التى أصبحت مرادفة التراث. وانزوت العلوم النقلية العقلية ثم اختفت تماما العلوم العقلية الخالصة، الطبيعية والرياضية والإنسانية.

ومنذ فجر النهضة العربية ازدهرت الثقافة من خلال التراث الدينى فى حركة الإصلاح الدينى أو فى الفكر السياسى الليبرالى. وبدأت تتأصل الحداثة فى

القديم كى تمتد جذور الحاضر فى الماضى. وعاش العرب أزهى عصر حديث لهم فى الشعر والأدب والفن وحتى الآن. وبدأت الثقافة العلمية والدعوة إلى العلم فى الفكر العلمى العلمانى. وتأسست المجلات للترويج للثقافة العلمية مثل "المقتطف". وكما أرسل محمد على البعثات العلمية للغرب فى القرن الماضى أرسل عبد الناصر البعثات العلمية إلى الشرق لبناء نهضة مصر المعاصرة. ولكنه كان علما منقولا أكثر منه نابعا من التراث كما كان علم القدماء. والعلم له تاريخ. وفصل العلم عن التاريخ فى كل ثقافة هو تدعيم للنقل وترويج للثقافة الغربية التى نشأ العلم فيها كظاهرة تراكمية منذ الشرق القديم حتى العلم العربى الذى صب أخيرا فى الغرب الحديث.

ومنذ الثورات العربية الأخيرة التى فضلت تغيير الهياكل الاجتماعية للمجتمعات العربية وهى فى حماسها القومى وفى نضالها ضد الاستعمار تأجلت قضايا الثقافة باسم الدعاية السياسية. وتأجلت قضية نقد الموروث باسم المحافظة على الهوية. وانزوى العلم إلا من دائرة المتخصصين فى مراكز البحث العلمى وفى الأكاديميات العسكرية. واشتدت المحافظة الدينية التقليدية وأصبحت هى التيار الثقافى السائد. وأصبح الدين هو المسيطر على العلم والثقافة على حد سواء. يذهب العالم إلى المعمل فى الصباح ويتبرك بالأولياء فى المساء. ويصبح شرط التدين معاداة العلم والثقافة. ويأخذ المثقف الدين مقياسا لصحة الثقافة أو خطئها.

والحقيقة أن الثقافة هى الرباط الطبيعى بين الدين والعلم. وبدونها يصبح العلم مجرد صناعة، والدين مجرد تجارة. الثقافة هى شرط الفهم المستنير للدين، وتحول العلم من المعمل إلى تصور علمى للعالم عند الناس. بالثقافة تنشأ التيارات العقلانية والنزعات الإنسانية. ويتم الدفاع عن الحرية كشرط موضوعى للفهم. الثقافة شرط الإبداع فى العلم وتأسيس العلوم الدينية اعتمادا على العقل والتجربة ورعاية لمصالح الأفراد والجماعات والشعوب.

وفـى الثقافـة تكمـن روح العلـم وروح الديـن: البحـث عـن الحقيقـة، رعايـة المصالح العامة، التحقق من صدق الفروض بالعقل والتجربة، البحث الحـر. فـالنظر شرط التكليف فى الدين، والتخلص من المسلمات المسبقة شرط التقدم فى العلم.

والثقافة يحملها الإنسان، ومرتبطة أشد الارتباط بحقوقه الطبيعية وفى مقدمتها حرية الفكر والتعبير. وكذلك ارتبط العلـم بالإنسان وبمصالحـه وبالمنـافع العموميـة. وجاء الدين لصالح الإنسان وفوزه فـى الدنيـا والآخـرة. فـالوحى خطـاب اللـه للبشـر وغايته الإصلاح فى الأرض وإعمارها.

إن الوحدة العضوية بيـن الديـن والعلـم والثقافـة هـو شـرط التقـدم الاجتمـاعى والنهضـة الشاملة حتـى لا تـزدوج الشـخصية القوميـة بيـن نموذجيـن، العلـم والديـن، وننسى الثالث وهو الثقافة، ولا تكـثر برامـج العلـم والإيمـان وتقل البـرامج الثقافيـة. لذلك قال ديكارت "أنا أفكر فأنا إذن موجود" ولم يقل "أنـا أومـن فأنـا إذن موجـود" أو "أنا عالم فأنا إذن موجود". ولذلك أيضـا قـال القدمـاء: العقـل أسـاس النقـل، وموافقـة صحيـح المنقـول لصريـح المعقـول. وأن الحكمـة هـى مـا يقتضيـه النظـر بحسـب طبيعة البرهان.

٣- التنوير والتثوير

كثر الحديث هذه الأيام عن التنوير. وصدرت كتب التنوير. وتكونت جماعات ثقافية باسم التنوير. وأعيدت كتابة تاريخ العرب عامة ومصر خاصة من خلال التنوير.

أصبح التنوير مفتاحا سحريا يتم به فتح مغاليق الأمور، يغيرنا من حال إلى حال بعد غمضة عين وانتباهتها. وكم من المفاتيح السحرية يُعثر عليها في أوقات الأزمات: العلم والتكنولوجيا، العلم والإيمان، نظم المعلومات، الصحوة الكبرى، انظر حولك، وأخيراً التنوير.

والمقصود به ليس كما يبدو عليه اللفظ البراق، فمن منا يرفض التنوير، بل الهجوم على الحركات الإسلامية باعتبارها داعية للإظلام. هذا هو المسكوت عنه وراء المنطوق به. فالجماعات الإسلامية عدوة النظم السياسية، ومُطارَدة من أجهزة الأمن والشرطة، ومتّهمة بتدبير الانقلابات على نظم الحكم وممارسة العنف وشتى أنواع الإرهاب. وهنا يبرز التنوير كأداة من الدولة ومن خلال أجهزتها للتصدى لأعداء النظام. وترصد له الملايين لإصدار كتب التنوير، وإخراج أفلام ومسرحيات التنوير، ولعقد مؤتمرات وندوات ولقاءات التنوير، ولإنشاء جماعات وصحافة للتنوير. أصبح التنوير شرطة عقلية جديدة يتم بها ملاحقة المخالفين فى الرأى والمعارضة السياسية خاصة الحركة الإسلامية. كان اسمه المواجهة فى البداية. فلما كُشف الأمر تحول إلى التنوير، يخفى أكثر مما يعلن. فأصبح التنوير فى الظاهر عنوانا على المواجهة فى الباطن، وضد الحوار. يبغى الاستئصال والاستبعاد والإقصاء وليس الفهم وتبادل الآراء والأخذ والعطاء مع الخصوم.

ويتولى المهمة مجموعة من المثقفين وأساتذة الجامعات والكتّاب والشعراء والصحفيين والفنانين والموظفين وناصبى المهرجانات تقرباً إلى السلطان ودعاة

البيان ١٩٩٦/٨/٢٦ (لم يُنشر).

للنظم الحاكمة، نيلا للمناصب، ورغبة فى الحظوة والقربى. فَداء المثقف دائما هو السلطة، ورغبته فى أن يكون قريبا منها، مبرراً لها، موظفا عندها، خادما لها، منفذا لسياساتها، مدافعا عنها حتى تجتمع له السلطتان الثقافية والسياسية، رجال دين جدد تجتمع لهم السلطتان الدينية والسياسية، السيف والقلم، وزارة الداخلية ودار الإفتاء.

وقد تم رد التنوير فى نهضة العرب الحديثة منذ القرن الماضى إلى أحد روافده وهو التيار العلمانى وحده. ولم يكن التنوير منذ فجر النهضة العربية علمانيا فقط بل كان إصلاحيا أو ليبراليا كذلك. كان الأفغانى رائد الحركة الإصلاحية الحديثة دينيا مستنيرا ومنه خرج محمد عبده. وكان الطهطاوى ليبراليا يجمع بين العقلانية القديمة والليبرالية الغربية. وكلاهما أقدم من التيار العلمى العلمانى الذى أسسه شبلى شميل ويعقوب صروف وإسماعيل مظهر وسلامة موسى وزكى نجيب محمود وفؤاد زكريا وجابر عصفور فى هذا القرن.

كانت هناك ثلاثة اختيارات مطروحة على الفكر العربى الحديث. وكلها من أنصار التنوير. التيار الإصلاحى الذى يبدأ بأنه لا يتغير شئ فى الواقع إن لم يتغير فهمنا للدين أولا، والتيار الليبرالى الذى يبدأ بأنه لا يتغير شئ فى الواقع إن لم نبن الدولة الحديثة أولا، فالدولة عماد التحديث، محمد على ثم عبد الناصر. والتيار العلمى العلمانى الذى يقصره دعاة التنوير وحده على التنوير، يبدأ بأنه لا يتغير شئ فى الواقع إن لم يتغير فهمنا للطبيعة ونبدأ بالعلم أولا.

لم تكن هذه التيارات الثلاث متخاصمة فيما بينها بل كانت فى حوار مستمر. لم يستبعد أحدهما الآخر تقربا إلى السلطان بل ساهمت جميعا فى صنع فجر النهضة العربية. كان الأفغانى الإصلاحى صديق شبلى شميل العلمى العلمانى أو التنويرى بلغة تنويريى الدولة المحدثين، الأول ضد نظرية التطور والثانى مدافعا عنها ومن دعاتها. ويكتب إبراهيم أدهم العلمى العلمانى "لماذا أنا ملحد؟" ويرد عليه محمد فريد وجدى الإصلاحى "لماذا أنا مؤمن؟". وكان محمد عبده الإصلاحى

صديقا لفرح أنطون العلماني. ودخلا معا في حوار حول "الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية" على صفحات "المنار" و "الجامعة".

لم تتخاصم التيارات الثلاثة بل تكاملت وتحاورت وتوحدت من أجل الإصلاح بالمعنى العام. لم يعتبر أحدها نفسه الفرقة الناجية والأخرى الفرق الهالكة. لم يسكب التيار العلمي العلماني الزيت على النار لاشعال الحريق بل حاول تقديم بديل جديد عن البديلين المطروحين على الساحة الفكرية: الإصلاح الديني، والليبرالية السياسية. كان معظم أنصاره من نصارى الشام، يفكرون ويكتبون في بيئة ذات ثقافة إسلامية، يأخذون بيدها تدريجيا لتطويرها وليس لاستئصالها.

إن نفاذ طبعات "التنوير" ليس حبا في التنوير أو تقديرا له أو تشبعا به بل لرخص أسعارها والإتجار فيها في السوق السوداء، وفي أحسن الأحوال اقتنائها للأحفاد في مكتبة الأسرة ومهرجان القراءة للجميع. ونظرا لغلاء الأسعار بما في ذلك أسعار الكتب وولع العرب عامة والمصريين خاصة بكل ما هو رخيص وبثمن زهيد نفدت الطبعات، بالرغم من عدم إعطاء حقوق المؤلفين بدعوى أنها منشورة سلفا، ومساهمة من المثقفين في مواكب التنوير. قد يكون القصد منها عند التنويريين عمل "غسيل مخ" للثقافة الوطنية من التيارات الإسلامية. ولكن الواقع يدل على حب الناس للثقافة الشعبية والطبعات الرخيصة بصرف النظر عن مضمونها. وكما تدعم الدولة كتب التنوير، تدعم شركات توظيف الأموال ودور النشر الإسلامية كتب التراث. وتحول الأمر إلى سباق تجاري في معارض الكتب العربية، أيها أرخص للشراء وليس أيها أقيم للقراءة. فتحولت الثقافة إلى سلعة، والتنوير إلى تجارة.

إن إعادة نشر كتب التنوير من إنتاج الجيل الماضي هو إعلان إفلاس هذا الجيل التنويري وعجزه عن إبداع مثل ما أبدع القدماء وكأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان. ولا يختلف التنويريون في ذلك عن السلفيين. فكل منهم ينشر تراثه القديم لعجزه عن إبداع تراث مماثل، إسلامي في حالة السلفيين، وتنويري في حالة

التنويريين. وعدنا إلى عصر الشروح والملخصات، العصر المملوكي التركى العثمانى، عندما عجز العقل العربى عن الإبداع فاعتمد على الذاكرة. واجتر الماضى وشرح النصوص ولخصها دون أن يبدع نصوصا جديدة.

وكلا الموقفين يتجاوزان التاريخ ويعيشان فى المطلق. فكل عصر له معاركه، وكل جيل له اجتهاداته. كلاهما سلفى النزعة. هذا سلفى تراثى وذاك سلفى تنويرى. نموذجهما فى الماضى، العودة إلى التراث السلفى فى الماضى البعيد أو التراث التنويرى فى الماضى القريب. كلاهما عاجز عن التحديث والمواجهة لأن كل منهما يريد مواجهة الآخر بسلاح مضى، ولا أحد منهما يقبل تحديات الواقع بأسلحة جديدة. وتظل الثقافة الوطنية محاصرة بين هؤلاء وهؤلاء لاتجد لها مخرجا، ولا تجد من يحاول إعادة بنائها خارج معارك الخصوم، مراعيا المصالح العامة للناس، وعاقدا الحوار الوطنى بين مختلف التيارات بعيدا عن إغراء السلطة، العمل فى كنفها كما يفعل التنويريون أو الانقضاض عليها كما يريد السلفيون.

إن الأجدى ليس تكرار التنوير القديم، فقد أدى دوره منذ القرن الماضى وفى هذا القرن حتى قبيل الثورات العربية الأخيرة، بل تطويره ونقده وبيان حدوده من أجل إكماله ونقله من مرحلة الإقطاع إلى مرحلة الشعوب، ومن القرن الماضى حتى النصف الأول من هذا القرن إلى القرن القادم بعد تعثر التنوير فى النصف الثانى من هذا القرن بالرغم التغير الاجتماعى والثورة السياسية.

لقد نشأ التنوير القديم فى حضن الدولة وعلى أكتافها بل وبمبادرة منها ورعاية لها منذ إرسال الطهطاوى إماما للبعثات التعليمية إبان حكم محمد على، وتأسيس جريدة الوقائع المصرية، والقيام بترجمة رواد التنوير، وإعادة قراءة التراث القديم من منظور التنوير، الحسن والقبح العقليان، مقاصد الشريعة، المصالح العامة، العقل مناط التكليف.. الخ. فى حين كان الإصلاح الدينى معارضا للدولة كما هو الحال عند الأفغانى وحسن البنا، وكان التنوير العلمى العلمانى على هامش الدولة وعلى أطراف الثقافة المصرية. ومازال الخط سائدا عند التنويريين الجدد،

العمل من داخل الدولة وفى كنفها مما يضع أشكال الصلة بين المثقف والسلطة، بين الثقافة والدولة، بين الأستاذ الدكتور وسيادة اللواء.

كما تمت صياغة التنوير بناء على النموذج الغربى فى القرن الثامن عشر الذى عرفه الطهطاوى: الدستور، والنظام البرلمانى، والتعددية الحزبية، وحرية الصحافة، والتعليم، لافرق بين ذكور وإناث، وحكم العقل. وتم تعريب روسو وفولتير ومونتسكيو، ابن خلدون الغرب. لم يرتبط التنوير بجذوره فى التراث القديم عند المعتزلة والفلاسفة. فتحول إلى تغريب. تبنته الطبقة الحاكمة والنخبة المثقفة ولم يتحول إلى ثقافة شعبية عامة ظلت تغلب عليها المحافظة الدينية. فسهل حصاره وإضعاف أثره على الحياة العامة.

لم يتحول التنوير إلى تثوير، ولم يتحول العقل إلى ثورة. ظل فكرا عقلانيا خالصا يتبناه الإقطاع الحاكم والتعليم الجامعى للطبقات العليا. وفى موجة التنوير ساد الإقطاع وعم الفقر. تعلمت الأقلية، وجهلت الأغلبية. وانفصل المجتمع إلى طبقتين. طبقة النصف فى المائة التى بيدها الثروة والحكم والتنوير، وجموع الشعب الفقيرة خارجة الحكم، تعيش فى موروثها القديم وتتمسك به.

ونجح التنوير فى اندلاع ثورة ١٩١٩ باسم الحرية والدستور، والحق فوق القوة، والأمة فوق الحكومة. وعاشت مصر أزهى فتراتها الليبرالية بعد أن تأسس أول برلمان فيها فى سبعينات القرن الماضى. ثم جاءت ثورة ١٩٥٢ لتضع نهاية للّيبرالية والتنوير بعد أن كانا أكبر دعامة للرأسمالية الزراعية.

وبدأ التثوير خلافا للتنوير. وقضى على طبقة النصف فى المائة بالإصلاح الزراعى الأول والثانى والثالث. ووزعت الأرض على الفلاحين، وأممت الشركات الأجنبية، ومصّرت الأخرى. وتحول رأس المال الزراعى إلى التصنيع، وأُعطى العمال الحقوق، وعمت مجانية التعليم كل مراحله حتى التعليم الجامعى. وأُنشأ القطاع العام منعا للاستغلال والاحتكار من القطاع الخاص. وقامت الدولة

بتدعيم المواد الغذائية الأساسية. وأعيد توزيع الدخل القومى بوضع حد أدنى وحد أعلى للأجور.

ولكن هذا التنوير لم ينشأ من العقول حيث قبع التنوير القديم ولكنه أتى من القيادة الثورية بقرارات فوقية. فأخذ الناس حقوقهم دونه استردادها، وأنشغل الناس فى البناء القومى، فى الحزب الواحد، ممثل الرأى الواحد. فانزوى التنوير لصالح التثوير. وتنازل الناس عن حرياتهم لصالح بنائهم القومى وثقة بالقيادة الثورية.

ولما تعثرت التجربة الثورية بعد هزيمة ١٩٦٧ واختفاء عبد الناصر فى ١٩٧٠، وحدوث الثورة المضادة ابتداء من ١٩٧١ حتى ١٩٧٤ بالرغم من حرب أكتوبر ١٩٧٣ خسر الناس التنوير قبل ١٩٥٢ والتنوير بعدها. وارتدوا على أعقابهم بعد أن فقدوا الحسنيين.

والآن يعود التنوير من جديد راغبا فى الثأر من التثوير، مكررا تجربة مصر والعالم العربى منذ مطلع القرن الماضى حتى أواخر هذا القرن. والتاريخ لا يعيد نفسه.

هل يمكن إذن الانتقال من التنوير إلى التثوير كعمل إبداعى لهذا الجيل عن طريق إحداث ثورة فى الفكر تجمع بين تنوير العقل وتثوير الواقع؟ لا تتم ثورة الفكر إلا بالحوار ومقارنة البدائل وإعادة الاختيار بينها. هل يمكن ذلك عن طريق إعادة بناء الثقافة الوطنية ونقلها من المحافظة إلى التحرر، ومن التقليد إلى التجديد؟ وذلك لايتم إلا بإعادة بناء الموروث من الداخل وليس نقل التنوير أو التثوير من الخارج. هل يمكن إحداث تغيير اجتماعى يحافظ على مكاسب التثوير بسند من التنوير حتى لايكون التنوير فى جانب العقول، والفساد والاستغلال والاحتكار والتهريب والمضاربات خارج العقول؟ وذلك لا يتأتى إلا بإحداث تغير جذرى فى مناهج التعليم حتى يتعود جيل جديد على التفكير. لعله يستطيع أن يبدأ هذه المرة بمهمة "المفكرين الأحرار" بعد أن بدأ الجيل الماضى بحركة "الضباط الأحرار".

٤- نقد المدخل الإيديولوجي للواقع العربى الراهن

لايوجد شعب غنى بالأفكار ومرتبط بالأيديولوجيات قدر الشعب العربى. يعيش من الايديولوجية. فهو أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة، وهو خير أمة أخرجت للناس، وهو أعرق حضارة فى التاريخ منذ حمورابى وأخناتون وسبأ. وإليه أتى الأنبياء فى الماضى، ومنه خرج زعماء التحرر الوطنى فى الحاضر ناصر، بن بللا، وفيه نشأت أفكار التحرر من الاستعمار عند الأفغانى والاستقلال عند إقبال.

ولايوجد شعب مطحون بالأزمات، يئن بالأوجاع، وتسوده الأحزان قدر الشعب العربى: مساومات مستمرة على الحق العربى، تجزئة وتفتت ومخاطر الطائفية والعرقية فى وقت خفتت فيه أيديولوجيات الوحدة، عربية أم إسلامية، ازدياد البون الشاسع بين الأغنياء والفقراء. عموم القهر والقمع من المحيط إلى الخليج، التبعية فى الغذاء والكساء والثقافة والسلاح، التميع والتذبذب حول الهوية والإحساس بالاستقلال، لاسلبية الناس ولامبالاتهم حتى لو دخل أعداء الأمس وأصدقاء اليوم العواصم العربية كفاتحين جدد، فعلى أيديهم يعم السلام ويزداد الرخاء!

وفى نفس الوقت الشعب العربى من أغنى شعوب العالم، ثروة، وموقعا، وبشرا، وإمكانيات عمالة، وتخطيطا، وثقافة، ونضالا، وإبداعا. تجمعت ثروات النفط بالرغم من ضياع الكثير منها فى حربى الخليج الأولى والثانية، وبالرغم من بقاء البعض الآخر فى الاستثمارات خارج الوطن العربى. هاجرت العقول ولكن البعض مازال صامدا يبنى ويبدع ويخطط فى الحرب والسلام. له عمقه التاريخى فى ألوف السنين بالرغم من قصر عمر حداثته فى قرنين من الزمان.

البيان ١٩٩٦/١/١٥.

لذلك يبرز سؤال: لماذا إذن هذا التفاوت بين الغنى الفكرى والمادى من حيث الإمكانيات وبين الواقع العربى المتأزم من حيث ما يُشاهد؟ ما السبب فى هذا التناقض الشديد بين الحلم والواقع، بين الإمكان والاستحالة، بين ما ينبغى أن يكون وما هو كائن؟ لماذا هذا الفصام فى الشخصية العربية بين ماضيها وحاضرها، بين ما تتمناه وما يتحقق؟

قد تكون الإجابة على هذا السؤال فى غلبة المدخل الإيديولوجى للواقع العربى الراهن، وإعطاء الأولوية للفكر على الواقع، وللنظر على العمل، وللماضى على الحاضر، وللسلطة على الشعب. ومن ثم يكون السؤال التالى: وإلى أى حد يمكن نقد هذا المدخل الإيديولوجى والتحرر منه حتى يمكن رؤية الأزمة العربية الراهنة والإمساك بها ومحاولة حلها؟

هناك أيديولوجيات أربع فى الساحة العربية وعلى مدى أكثر من قرن من الزمان. هناك الليبرالية كما تجلت فى مصر والشام خاصة والتى بشر بها رفاعة رافع الطهطاوى فى مصر، وخير الدين فى تونس تحذو حذو الليبرالية الغربية: الملكية المقيدة، والدستور، والتعددية الحزبية، والبرلمان. وقد حكمت فى مصر منذ ثورة ١٩١٩ حتى ثورة ١٩٥٢ كنموذج لبلد عربى. وحكمت على فترات وبأشكال متعددة المغرب وتونس ولبنان وسوريا والكويت، والبحرين، وأخيرا الأردن واليمن.

وهناك أيضا الاشتراكية العربية كما تجلت فى الناصرية فى مصر وفى حزب البعث العربى الاشتراكى فى الشام والعراق. حكمت بعد الثورات العربية الأخيرة، ونادت بالحرية والاشتراكية والوحدة بصرف النظر عن أولوية كل منها على الآخر، وحققت أكبر إنجاز عربى وحدوى قومى تنموى حديث. وبنفس معدل الصعود بدأ الهبوط، وكما حدث النصر وقعت الهزيمة، وكما قامت الثورة انقلبت إلى ثورة مضادة تمارس نقيض ماكانت تدعو إليه.

وهناك الحركة الإسلامية بكل فصائلها بالرغم من تباين أشكالها. حكمت منذ الوهابية فى شبه الجزيرة العربية، وفى فترات قليلة باسم المهدية فى السودان، وأصبحت فى السلطة أخيراً فى الثورة الإسلامية فى إيران وفى السودان، وتناضل فى الجزائر من أجل استعادة شرعيتها فى الحكم. والعنيف منها مطارد فى المغرب وتونس ومصر واليمن والكويت وسوريا والعراق. وأخيرا فازت بالأغلبية فى تركيا. وإيران وتركيا دول الجوار للوطن العربى وامتداد له عبر الإسلام والثقافة والتاريخ والنضال المشترك فى العصر الحديث.

وهناك الماركسية العربية فى كافة أرجاء الوطن العربى سواء كانت منظمة فى أحزاب أو حركات ثقافية أدبية. كانت أحزابها قوية إلى عهد قريب فى مصر والشام والعراق ولبنان واليمن قبل الوحدة. حكمت سواء بمفردها كما كان الحال فى عدن أو فى تحالف مع حزب البعث فى سوريا والعراق أو كانت جزءا من جبهة التحرير الوطنى كما كان الحال فى الجزائر. البعض منها كان وطنيا والبعض الآخر كان "كوسموبوليتانيا". البعض كان مستقلا، والبعض الآخر كان مرتبطا بالاتحاد السوفيتى.

وكانت حصيلة تجارب الماضى للايديولوجيات الأربعة هى الاستبعاد المتبادل. إذا ما أتت إحداها فى السلطة استقصت الأخرى وأودعته السجون، ولم تسمح له حتى بالمعارضة العلنية الشرعية. فعندما حكمت الليبرالية فى مصر قبل ١٩٥٢ استبعدت الإخوان والماركسيين. وعندما حكمت الاشتراكية العربية أو الناصرية مصر بعد ١٩٥٢ استبعدت الإخوان والماركسيين والليبراليين كتنظيمات شرعية وإن تعاونت مع الماركسيين مرة فى العهد الناصرى ومع الإخوان والوفد مرة أخرى بعد اختفاء عبد الناصر. وعندما حكمت الماركسية فى جنوب اليمن، فى عدن قبل الوحدة استبعدت الإخوان والقوميين بدعوى الماركسية العالمية. ولم توجد ليبرالية حديثة فى تاريخ اليمن المعاصر لاستبعادها. وعندما حكمت الجبهة القومية

فى السودان استبعدت الماركسيين والقوميين والناصريين والليبراليين باعتبارهم علمانيين. كما تفككت عروة الثورة الإسلامية فى إيران التى كانت أحد أسباب نجاحها، واستُبعد الماركسيون والليبراليون. ومازالت الوهابية تحكم بمفردها فى شبه الجزيرة العربية باسم الإسلام المكتفى بذاته الذى لايحتاج إلى إيديولوجيات غربية دخيلة.

وقد يحدث تحالف وقتى بين الإيديولوجية الحاكمة وأحد فصائل المعارضة ضد فصائل أخرى، ضربا للمعارضة بعضها بالبعض الآخر لإضعاف الجميع وتقوية الإيديولوجية الحاكمة، وذلك مثل تحالف الاشتراكيين والناصريين مع القوميين ضد الإخوان والليبراليين فى العهد الناصرى، ثم تحالف الثورة المضادة فى مصر بعد اختفاء عبد الناصر مع الإخوان والوفد من أجل تصفية الناصريين كخصوم مشتركة وإضعاف الجناحين لتقوية القلب فى الظاهر وموته بالفعل.

صحيح ولا شك أن بعض الانجازات على أرض الواقع قد تحققت جزئيا طبقا لطبيعة الاختيار الإيديولوجى فتحققت فى الفترة الليبرالية الحرية دون العدالة الاجتماعية. وتحققت فى الفترة الاشتراكية العدالة الاجتماعية دون الحرية. وفى الإيديولوجيات الإسلامية تحققت بعض الهوية المستقلة فى إيران والسودان دون تنمية بشرية واقتصادية كافية. وفى شبه الجزيرة العربية تحققت بعض الخدمات والوفرة الاستهلاكية دون تنمية بشرية موازية ولكن يظل الدافع الرئيسى للإيديولوجيات هو الصراع على السلطة والتنافس عليها سلما أو حربا، ديمقراطيا أو انقلابا، طبقا للأثر الموروث "إن الله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن". السلطة أولا، وكل السلطة ثانيا ويأتى الواقع والإصلاح بعد ذلك إن أتى. وتتحول إيديولوجية السلطة إلى سلطة الإيديولوجية تستقصى وتستبعد، تقهر وتتكبر حتى تقع إما بسلطة إيديولوجية أعتى وأكبر أو بثورة الواقع المأزوم وتحت أثر ضغط الحياة المادية.

وفى نفس الوقت الذى تشتد فيه الحرب بين الإيديولوجيات، وتستأسد فيه سلطة الإيديولوجية يتأزم الواقع، ويعز الخبز قبل الحرية، وتتعثر الخدمات، ولا تتحقق الحاجات الأساسية للمواطنين الغذاء والكساء والسكن والمواصلات والمستشفيات والهواء النظيف والمياه النقية والطعام غير الفاسد. وترفع شعارات الوحدة ويقف المواطن على الحدود متهما مدانا كمهرب أو عميل. ويُغنى بالاشتراكية فى التلفزيون الملون وفى صالات الرقص، فالاشتراكية "للناس اللى فوق". والكل يعظ بالإسلام، وتفيض أعينهم بما عرفوا من الحق، وتذرف الدمع ولا أحد يعرف من سرق المصحف. والنظام القومى يعتدى على دولة عربية باسم القطرى والتوسع القطى. وباسم الحرية يُسجن الأحرار.

تأزم الواقع العربى، وتفاقمت مشاكله، وعزت أمانيه، والشعارات مرفوعة، والإيديولوجيات تتصارع. والخبز عزيز. والحريات مسلوبة، والأوطان منتهكة، والكرامة ضائعة، والأرض محتلة، والقدس مهوّدة، والاستقلال الوطنى مرتهن، وشعارات الحرية والاستقلال والعدالة الاجتماعية والقومية والإسلامية فى كل مكان.

لذلك يبرز سؤال: وما نهاية المدخل الإيديولوجى للواقع العربى الراهن؟ وهل من سبيل للخلاص منه والبداية بالواقع نفسه وتطويع الإيديولوجيات له؟ وما السبب فى هذا الطغيان الإيديولوجى، اقتناعا أو تبريرا على الواقع العربى؟

الإيديولوجيا وريثة التراث القديم أو التراث الغربى. وطالما أن التراث القديم مازال حيا فى النفوس حاضرا فى الأذهان تنشأ الإيديولوجيات الإسلامية رافعة شعار "الإسلام هو الحل"، "الإسلام هو البديل"، "تطبيق الشريعة الإسلامية". وطالما أن التراث الغربى مازال وافدا فى الوجدان العربى المعاصر. تختار النخبة الحاكمة الليبرالية أو القومية أو الماركسية بشتى فصائلها نظم الحكم باسم الحداثة والعصرية. والواقع العربى فى كلتا الحالتين هو الخاسر. فى الإيديولوجيات الأولى يحضر الماضى على حساب الحاضر، وفى الإيديولوجيات الثانية يحضر المستقبل

على حساب الحاضر. وفى كلتا الحالتين الزمن العربى هو الخاسر. والفكر الموروث سلطوى الطابع كما مثلته الأشعرية بعد أن تحولت إلى ثقافة، تعطى الأولوية للأعلى على الأدنى فى النظر والعمل؛ فى الفرد والدولة.

والآن. نحن فى مرحلة إعادة بناء الوطن. وذلك يقتضى البداية بالواقع وليس بالفكر، بالأزمة وليس بالحلول المسبقة. ولما كانت الأطر النظرية متعددة كما مثلتها الايديولوجيات الأربع، فيمكن صياغة برنامج عمل وطنى موحد تتفق عليه هذه الأطر النظرية كمرشد عملى. والحكم للناس بعد انتخابات حرة قد لا تضع إحدى هذه الإيديولوجيات فى السلطة بمفردها كما هو الحال فى الانتخابات التركية. لذلك لزمت الجبهة الوطنية المتحدة التى تحكم باسم الجميع.

قد يقال إن ذلك تبسيط وتكرار، وأنه تنكر للإيديولوجيا وهى المدخل الطبيعى للعمل السياسى. ولا رؤية للواقع أو لمسار التاريخ دون إيديولوجيا، ولا برنامج للعمل الوطنى يمكن صياغته دون إيديولوجيا. وهو سؤال يتضمن نفس الحكم المسبق وهو المدخل الإيديولوجى للمأزق العربى الراهن.

٥- الاغتراب فى الزمان

ليست المفاهيم الفلسفية مفاهيم مجردة، نظرية، يصعب فهمها على الخاصة والعامة بل هى تعبيرات عن واقع حى نشأت فيه وتعود إليه من جديد، ويكون لها أكبر الأثر على سلوك الناس. فهى تنبثق من الواقع تعبيرا عنه، وتعود إليه مؤثرة فيه. وعبر الزمن، وتناقل هذه المفاهيم، تترسب فى الوعى القومى وتصبح بناء فيه يحدد معالم الشخصية القومية وحركة ثقافتها وجماهيرها فى نفس الوقت.

ومن ضمن هذه المفاهيم الزمان والاغتراب. وكلاهما مفهومان فى التراث الغربى وفى تراثنا على حد سواء، فى الغرب عند القدماء والمعاصرين خاصة الوجوديين منهم، وفى تراثنا القديم والمعاصر بل إنهما لفظان وردا فى الحديث النبوى. فقد خلق الله الزمان مستديرا ومنه نشأت السنون والشهور والأيام. وجاء الإسلام غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء. وقد سمى الدلجى الاغتراب "الفلاكة" والمغتربين "المفلوكين" أى الذين يعيشون زمان الأفلاك خارج زمانهم، غرباء عن العالم وخارج التاريخ.

ووضع الزمان فى الوجدان العربى قد يكون أحد أسباب الأزمة السياسية الراهنة. فالزمان هو ركيزة الوعى التاريخى. والوعى التاريخى هو رصيد الوعى السياسى. ويمكن تلخيص هذا الوضع فى أن الزمان فى الوعى العربى إما الماضى وإما المستقبل وليس الحاضر. يتجه نحو الماضى، نحو يوتوبيا ما ضية كانت هى والواقع شيئا واحد ثم انفصلت عنه نظراً لتسرب الواقع منها، منحدرا عنها حتى حدث فصام فى الشخصية العربية بين المثال والواقع، المثال البعيد والواقع القريب، الماضى والحاضر. والماضى الزاهر خير من الحاضر الأليم. ولاحل لأزمة الحاضر إلا بالعودة إلى الماضى. وهو فى الواقع هروب لاحل، وسكينة

البيان ٢٦/١١/١٩٩٦.

ورضا وليس مواجهة للأزمات. فالنجاح فى الماضى تعويض عن تعثر الحاضـــر. واسترجـاع الحلـم أسهل من تحليل الأزمة. وحلم اليقظة خير علاج للواقع الأليم.

وقد يتجـه الوعـى بالزمـان إلـى المستقبل. فـالتطلع إلـى المستقبل. خـير مـن الركون إلى الحاضر، والهروب إلى الأمل البعيد خير من مواجهـة البؤس القريـب. ففى نهايـة الزمـان حـل لبدايتـه. والتفـاؤل خـير مـن التشـاؤم، والفـرج قريـب. عنـق الزجاجـة مؤقـت بعدهـا تـأتى الانفراجـة، فـالهروب مـن الحـاضر مرتـان، مـرة إلـى الماضى، فى عصر ذهب، ولـى وانقضـى، ومـرة إلـى المستقبل فـى عصـر ذهبـى مازال قادما.

ولا فـرق فـى ذلـك بيـن الإسـلاميين والقوميين والليـبراليين والماركسـيين. فالخطاب الإسلامى المعاصر فيما وراء الرفض المباشـر للواقـع أى الحـاضر وعـدم الاعتراف به يرنو إلى الماضى إلى عصر النبوة والخلافة الراشدة، عصـر الطـهارة والنقاء الأول قبل أن تتحول النبوة، والخلافة إلى ملك عضـود. وخـير القـرون قـرن الرسـول. ويقـل الفضـل تدريجيـا، جيـلا وراء جيـل حتـى نصـل إلـى التدهـور الحالى، وفتن آخر الزمان. فالسلف خير من الخلف. حافظ السلف على تراث الأمـة. أما الخلـف فقـد أضـاعـوا الصلـوات واتبعـوا الشـهوات. فنعم السـلف وبئـس الخلـف. ولا يصلـح هـذه الأمة إلا ما صلح به أولهـا. وجـاء الإسـلام غريبـا، ويعـود غريبـا، فطوبى للغرباء.

وكما ينتقل الحاضر المتـأزم إلـى المـاضى السـعيد فإنـه قد ينتقـل أيضـا إلـى المستقبل البعيد، حياة السعادة والهناء بعد الموت بعد نيل الشهادة والعمل على تحقيق كلمة الله فـى الأرض لتكـون هـى العليـا. وسـعادة المسـتقبل الدائمـة خـير مـن وهـم السعادة فى الحاضر. والآخرة خير من الدنيا، والبقاء خير من الفنــاء. فـلا يـأس من الحاضر، والفرج قريب. ولا خوف من موت فى الحاضر والحياة الأبدية فى متناول الأيدى.

ويتجلى هذا الخطاب الطوباوى المزدوج، مرة فى الماضى ومرة فى المستقبل فى خطاب الجماعات الإسلامية المعاصرة بل وفى الخطاب الدينى العادى كما يبدو فى خطبة الجمعة. فالخطيب يتحدث عن عصر النبوة والخلافة الراشدة. ويحول التاريخ إلى مثال، وينتزع المصلين من حاضرهم إلى ماضيهم، ومن بؤسهم الحالى إلى نعيمهم الأول، ترحما على ما فات. والشخصية العربية فى بعض جوانبها مولعة بالحزن وباستدعاء الذكريات وما عرف بالبكاء على الأطلال فى القصيدة العربية القديمة.

ويمكن للإمام أيضا بعد أن يستنفد الطاقة فى العود إلى الماضى أن يتجه بوعى المصلين إلى المستقبل فيبشرهم بجنة النعيم، ويحذرهم من العذاب الأليم، ويوعدهم بالحور العين وبجنة الرضوان. فيشبع الجائع، ويكسو العارى، ويخفف من شقاء الحضور وبؤس المصلين. وتصبح خطبة الجمعة أشبه بالدواء الأسبوعى أو الحقنة المخدرة للجماهير. فمأساتهم فى ضياع النموذج الماضى. وحلها فى انتظار عودته فى المستقبل.

ولا يختلف خطاب القوميين عن خطاب الإسلاميين فى وضع الزمان، وتوجيه الوعى بالتاريخ إلى طوباوية مزدوجة، مرة نحو الماضى ومرة نحو الحاضر. فالخطاب القومى المعاصر، نموذج الخطاب الناصرى فإنه يترحم أيضا على حلم الستينات، ووحدة مصر وسوريا ١٩٥٨ - ١٩٦١، أول تجربة وحدوية فى تاريخ العرب الحديث. ويعيد قراءة ساطع الحصرى وميشيل عفلق ونديم البيطار وصلاح البيطار. أين هذا الزمان الذى كان فيه الخطاب القومى العربى حاملا لآمال الحرية والاشتراكية والوحدة ومتحدا مع خطاب التحرر الوطنى الشامل متجاوزا حدود الأوطان وقاضيا على الأحلاف العسكرية ومناطق النفوذ. ومازالت خطب عبد الناصر ترن فى الأذهان، وأغانى عبد الحليم حافظ الوطنية. وفيلم ناصر ٥٦ يكتسح الأسواق، ويعيد إلى الجمهور ذكريات حلم سعيد.

وفى نفس الوقت يُمنّى الناصريون جماهير عبد الناصر بأن الزمان سيعود، وبأن مامضى لم ينقضى، إنما توارى فى الأعماق. وحلم الماضى يعود حلما للمستقبل تخفيفا عن آلام الحاضر ودون حل لمآسيه. فالدولة القطرية لم تكن البديل الناجح عن الوحدة العربية. فباسم الدولة القطرية وقعت حربا الخليج الأولى والثانية. ووقعت مصر ثم الأردن اتفاقيات السلام. وإلى وقت قريب كانت الهرولة إلى إسرائيل على قدم وساق. كل قطر يريد اللحاق بقطار المستقبل تصبح فيه إسرائيل جسر الأمان للنظم السياسية وللتنمية الرأسمالية وللاستثمارات الأمريكية. والغرب حاضر بيننا لايحتاج إلى جسر. تظل الوحدة العربية حلم المستقبل كما كانت أمل الماضى. والحاضر نفسه يعيش أزمته، ولا أحد يسبر أغواره. والأحلام تتزايد فى كل خطاب.

ولا يختلف خطاب الليبراليين عن خطاب الإسلاميين والقوميين بالنسبة للوعى بالزمان وحركة التاريخ. فالخطاب الليبرالى أيضا يترحم على أسلوب الحياة وحرية الفكر، والتعددية الحزبية، والدستور، والجامعات الوطنية التى كانت سائدة فى مصر والعالم العربى قبل الثورات العربية الأخيرة. وكان العقاد يصيح داخل البرلمان المصرى أنه يستطيع أن يحطم أكبر رأس فى البلاد. وكان أحمد حسين يكتب تحت صور الفقراء على أرصفة الطريق "هؤلاء رعاياك يا مولاى". ولم تستطع انجلترا تغيير قانون المطبوعات وفرض الرقابة على الصحف. وكان أول برلمان فى مصر فى سبعينات القرن الماضى. وفى هذا العصر الليبرالى فى بر مصر والشام نشأ فجر النهضة العربية، وازدهرت حركة التأليف فى الفكر والأدب. وتأسست الصحف العربية حاملة لواء حرية الفكر ومناهضة الاستعمار. وانفتح الخطاب الليبرالى على الشرق، على اليابان والصين والهند، لافرق بين سعد زغلول وغاندى. ولا حل لأزمة الحرية والديموقراطية فى عصرنا إلا بالعودة إلى العصر الليبرالى دفاعا عن الحريات العامة والتعددية الحزبية والانتخابات الحرة وحقوق الإنسان. ولا فرق فى ذلك بين الشرق والغرب، بين تراثنا وتراث الآخر. فالليبرالية تراث إنسانى عام لكل الشعوب وفى كل الأزمان.

وبالرغم من توارى الخطاب الماركسى بعد انهيار المنظومة الاشتراكية إلا أن بعض المخلصين للخطاب التقليدى مازالوا يحرصون عليه. فباسم الاشتراكية انهارت القيصرية فى روسيا، ونشأت الأحزاب الاشتراكية فى أوربا الغربية، واندحر العدوان النازى على الشرق، وقوى ساعد حركة التحرر الوطنى وتنمية شعوب العالم الثالث. ومازال حلم لينين وماوتسى تونج وهو شى منه وجيفارا يراود الشيوخ، ويتوق إليه الشبان. ومازال رأس المال قائما. ومازالت أدبيات الماركسية هى أساس التجديد فى ماركسيات القرن العشرين.

وما ضاع فى ١٩٩١ يمكن أن يعود بدليل عودة الأحزاب الاشتراكية فى أوربا الشرقية للحكم بناء على انتخاب ديموقراطى حر. وقد تعلمت الشعوب أن حقيقة الماضى ولو مرة خير من أحلام المستقبل الوهمية التى تقوم على الرأسمالية الغربية واقتصاد السوق. فإذا كانت الحرية قد ضاعت فى الماضى دفاعا عن الخبز فإن الخبز أيضا قد عز فى الحاضر ولم تأت الحرية. أما بالنسبة للمستقبل فالحرية عادت ولم يعد الخبز. وازداد الفقر، ودخل اقتصاد البلاد الاشتراكية سابقا إلى اقتصاد السوق مع أزمة الفقر فى كلتا الحالتين. ويظل الخطاب الماركسى التقليدى يعد بطوباويتين، الأولى فى الماضى والثانية فى المستقبل. والحاضر نفسه له لغته ومنطقه.

قضية الوعى العربى المعاصر إذن وأزمته هى اغترابه فى الزمان، وعدم بدايته فى الحاضر دون تحويله إلى ماض سعيد أو مستقبل زاهر كما هو الحال فى الخطاب العربى المعاصر بصرف النظر عن نوعيته. الحاضر نقطة البداية. وفيه الحاجات الأساسية من خبز وحرية. والماضى حال فيه، إسلاميا كان أم قوميا أو ليبراليا أو ماركسيا. فكلها تجارب عاشها العرب فى الماضى بحلوها ومرّها، ورصيد لهم فى التاريخ. والمستقبل أيضا حال فى الحاضر عن طريق التطلع إليه وسيناريوهات المستقبل التى يتم الإعداد لها. فالحاضر هو الأساس والماضى والمستقبل بعدان له.

وهذا هو التحدى أمام الوعى العربى المعاصر. كيف يشخّص الحاضر؟ فى أى مرحلة هو يعيش؟ ماذا يفعل فى حضور الماضى فيه هذا الحضور الطاغى الذى يمنعه أحيانا من التوجه نحو المستقبل؟ قد يكون الماضى عائقا إذا كان ممثلا فى تراث السلطة والطاعة والتسليم والتقليد والنقل. وقد يكون دافعا على التقدم إذا كان ممثلاً فى تراث الناس والمصالح العامة والنصيحة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وقد يكون التطلع نحو المستقبل أيضا عائقا إذا كان مجرد تقليد للآخر ونقل لإبداعاته وتبعية له. هو ينتج، والأنا تستهلك. هو يبدع، والأنا تقلد. وقد يكون التوجه نحو المستقبل دافعا إلى التقدم للمساهمة فى صنعه والقدرة على الاجتهاد فيه وإيجاد ميزان التعادل فى مسار التاريخ، والعمل من مركزه وليس من أطرافه.

ويكون التحدى أيضا أمام الوعى العربى المعاصر هو سبر أغوار الحاضر، حاضر من؟ حاضر النخبة أم حاضر الجماهير؟ حاضر الأقلية أم حاضر الأغلبية؟ حاضر الرفض والعنف والغضب أم حاضر التدريج والحوار الوطنى والجبهة المتحدة؟ إن الحاضر فى الزمن هو الواقع الإحصائى. والوعى بالحاضر هو اجتماع الوعى بالزمان والمكان ومسارهما فى التاريخ. يظن الخطاب الإسلامى أننا فى عصر الإصلاح. فالإصلاح لم يكتمل بعد. ويظن الخطاب القومى أننا فى عصر الوحدة الكبرى. فتجارب التوحيد لم تنته بعد. ويظن الخطاب الليبرالى أننا فى العصر الليبرالى منذ فجر النهضة العربية فى القرن الماضى وحتى الآن بالرغم مما فيها من انتكاسات. ويظن الخطاب الماركسى أننا فى عصر الثورة والتنمية والتقدم الاجتماعى وانتصار العلم بالرغم من انهيار النظم الاشتراكية وسيادة اقتصاد السوق.

والبعض يلعن هذا الزمن الردىء، رافضا كل شئ، ويعلن الإفلاس التاريخى الشامل وينتهى إلى العدمية المطلقة. وهذا عجز عن الفهم وعدم قدرة على الفعل وسب الزمان "لاتسبوا الدهر فإن الله هو الدهر".

نعيب زماننا والعيب فينا ∴ وما لزماننا عيب سوانا.

٦- الدولة والمجتمع

يثار نقاش هذه الأيام ومنذ عقد من الزمان وفى عصر الانفتاح الاقتصادى حول "الدولة والمجتمع"، سيطرة الدولة على المجتمع، وأولوية الدولة على المجتمع. وهو ما يمنع من تطور المجتمع العربى وتطلعاته نحو الحرية والديموقراطية نظرا لتخوفه من الدولة وسيطرتها عليه. وبدأت مراكز الأبحاث تنظّر للموضوع، وتصدر النشرات والمجلات الدورية وغير الدورية تدعو له، ويتشدق بـه عديد من المثقفين "المستنيرين" دفاعا عن حقوق الإنسان، وقد كانوا بالأمس القريب من أنصار الدولة حتى ولو تغير نظامها السياسى عدة مرات.

وأحيانا تكون الدعوة "كلمة حق يراد بها باطل". فالوجدان العربى يعانى من سيطرة الدولة بالفعل، ويتوق إلى مجتمع ديموقراطى حر، يتمتع فيه المواطن بحقوقه الطبيعية. وهى دعوة براقة مرتبطة بالاستنارة وبالحداثة، لايرفضها الوجدان الطبيعى لأول وهلة. وفى الحقيقة قد يُراد بها باطل إذا كان المقصود منها إضعاف الدولة وإزاحتها عن دورها الطبيعى فى الحفاظ على الأمن القومى، وتحقيق الانسجام الداخلى بين طبقات المجتمع، والتخطيط لصالح الأغلبية والتعبير عن الإجماع الوطنى العام.

ومع ذلك تظل الدعوة محدودة الأثر بين جمهور المثقفين، أصحاب العلم، ورجالات السياسة، وصفوة القوم وعليتهم المطلعين على الثقافة الغربية، وأصحاب المصلحة إما فى الدولة الرخوة إذا كانوا من أهل القلم أو فى الانفتاح الاقتصادى إذا كانوا من أصحاب المصالح ورؤوس الأموال. أما الجماهير فإنها لا تدرى من الأمر شيئا وتحسبه نقاشا بين مثقفين علمانيين، تصفية حسابات بينهم. وفى نفس الوقت تهتز الجماهير للدعوات الإسلامية والانخراط فى حركاتها وأساليبها. فهى

البيان ١٩٩٦/٣/٢٨.

دعوة من الداخل وليست من الخارج، تستهوى القلوب، وتلجأ إلى الموروث الثقافى كمخلّص لها فى ساعة الضنك واشتداد الكرب. فقد نجحت الدعوة قديما وسادت، وبها ارتفع شأن الأمة. ثم اضطهدت الدعوة حديثا ولذلك ذلت الأمة فى الداخل والخارج. ولا يصلح هذه الأمة إلا ما صلح به أولها. وبالرغم من انتشار النقاش حول الدولة والمجتمع فى أجهزة الإعلام وربما بتأييد من الدولة إلا أنها هامشية بالمقارنة بالدعوة الإسلامية، مضمونا وأسلوبا.

والحقيقة أن النقاش فى هذا الموضوع وافد من الغرب مثل النقاش حول السلفية والعلمانية، الدين والعلم، الحداثة وما بعد الحداثة. المعركة غربية الأصل، وافدة المنشأ. نشأت فى انجلترا خاصة عند لوك وفى هولندا عند اسبينوزا ضد الكنيسة والمعبد ومن أجل إيجاد بديل عن مجتمع الإيمان الكنسى السلطوى فى مجتمع مدنى حر، وضد الامبراطورية وبقايا سيطرة الإقطاع ضد النظم الملكية والإمبراطورية والإقطاعية وايجاد بديل عن مقولات القن، والرعية. وتجمعت هذه البدائل كلها فى مفهوم "المجتمع المدنى". وهو مجتمع يسوده القانون الطبيعى وليس القانون الكنسى أو اليهودى، ويعبر عن حقوق الإنسان الطبيعية التى تحولت بعد ذلك إلى "الإعلان العالمى لحقوق الإنسان والمواطن". وفى مقدمتها حرية التفكير والتعبير، حرية القول والعمل، وحرية الاعتقاد، وحرية الحركة والانتقال، وحرية الاختيار بين المذاهب والنظم السياسية. ويتلو هذه الحرية الطبيعية" العقد الاجتماعى" الذى ينظم العلاقات بين الأفراد. وبموجبه يتنازل كل فرد عن جزء من حريته الطبيعية لممثل عن المجموع، مفوض فى التعبير عن المصالح العامة للكل. فهو الجامع لحريات الأفراد أو البعض منها والذين تنازلوا عنها بمحض اختيارهم. فالسلطة السياسية ليست ثيوقراطية، حكم الله، ولا أوليجاركية، حكم الأقلية، ولا إقطاعية، حكم الإقطاع، ولا طبقية، حكم الطبقة بل سلطة سياسية من اختيار الأفراد، تمثل مجموع الإرادات الحرة المستقلة.

ثم تنتقل هذه الدعوة خارج إطارها التاريخى الغربى الذى نشأت فيه من أجل زرعها فى إطار تاريخى آخر، فينشأ الخلط، وتضطرب المفاهيم. ففى النقاش الدائر الآن حول "الدولة والمجتمع" يُفهم من الدولة النظام السياسى الشمولى، ويعنى خاصة الناصرية وكأن باقى نظم الحكم فى العالم العربى تقليدية أو تقدمية، محافظة أو ليبرالية، ملكية أو جمهورية ليست نظما شمولية. مع أن الدولة ليست النظام السياسى. الدولة بناء سياسى مستقل، كيان صورى يمثل الإرادة العامة لمجموع المواطنين. تبقى الدولة وتتغير النظم السياسية.

كما قد تعنى الدولة أجهزة الأمن والشرطة، وقوات الحرس الوطنى، والقوات المسلحة، وباقى أجهزة القمع. وهى القوى التى يئن من تضخمها الوجدان العربى، خاصة بعد الثورات العربية الأخيرة. وهذه ليست الدولة بل أجهزة الأمن خارج حدودها لأن الدساتير البشرية تحمى حقوق المواطنين الطبيعية فى حرية القول والعمل.

وقد تعنى الدولة فى هذا النقاش الدائر حول سيطرة الدولة على المجتمع وضرورة التخفف منها، الدولة فى الداخل وليس فى الخارج، سيطرة الدولة على الحياة السياسية فى الداخل عن طريق سيطرة الحزب الحاكم الأوحد وقهر المعارضة السياسية وتهميشها أو اضطهادها، تخوينا أو تكفيرا. ولا تعنى الدولة الرخوة فى الخارج، الضعيفة فى العلاقات الدولية، التابعة للقوى الكبرى، وأحيانا المتحالفة مع أعداء الوطن.

والحقيقة أن الهدف غير المعلن من هذه الدعوة، الإقلال من سيطرة الدولة على المجتمع هو استبدال سلطة بأخرى، ونبذ سلطة الدولة الممثلة لإرادة المجموع من أجل سلطة الطبقة، طبقة الأغنياء أصحاب رؤوس الأموال من أجل حرية انتقالها من الداخل إلى الخارج والتى تكدست فى الريف والمدن فى إقطاع زراعى وصناعى وتجارى وعقارى جديد من أجل الانتقال من السيطرة الاقتصادية إلى السيطرة السياسية.

كما أن الهدف منها هو تفتيت سلطة الدولة وإنهاء التخطيط الاقتصادى لصالح "الخصخصة" بدعوى الانفتاح فى مقابل الانغلاق، ومن أجل الدخول فى اقتصاديات السوق الحر، والمنافسة والربح، وتطبيق اتفاقية "الجات" والخروج بالاقتصاد من المحلية إلى العالمية، تهريبا للأموال إلى الخارج، بعد المضاربة والتهرب من الضرائب فى الداخل، وتحويل الاقتصاد الوطنى إلى اقتصاد تابع، اقتصاد خدمات، والسوق الوطنية إلى عمالة واستهلاك، وتجميع رؤوس الأموال الوطنية فى الخارج، والخبرة الفنية فى الخارج، فنظام العالم الجديد أحادى القطب فى السياسة، ويتجه إلى أحادية القطب فى الاقتصاد باسم "الكوكبية" و"العولمة"، والعالم القرية الصغيرة، وثورة المعلومات، وعصر التقنية الجديد، والقرن الواحد والعشرين.

ولتصحيح هذا النقاش حول "الدولة والمجتمع" بعد استبعاد سياقه الغربى وسوء استغلاله المحلى يمكن فى البداية تحديد معنى الدولة ومعنى المجتمع. فالدولة هى دولة المؤسسات المستقلة، الجامعات، والقضاء، والصحافة والقوات المسلحة، والمجالس النيابية، والأحزاب السياسية، وأجهزة السلطة التنفيذية. وهى هياكل صورية قائمة بذاتها يملؤها النظام السياسى طبقا لأيديولوجيته واختياراته السياسية. فالدولة فى حد ذاتها ليست خيرا ولا شرا، حرية أو قهرا، رأسمالية أو اشتراكية، سلطوية أو فوضوية، قوية أو ضعيفة. الدولة بناء صورى يملؤه النظام السياسى. فهى خير أو شر لابد منه من أجل خير عميم أو شر أعظم.

أما المجتمع فهو مجموع الأفراد فى تنظيمات مستقلة عن الدولة تعبيراً عن اختيار الأفراد والجماعات الحر. ثم تتحول التنظيمات إلى مؤسسات اجتماعية يحكمها قانون الجمعيات الأهلية. ويتكون المجتمع من الجمعيات العلمية والأدبية، والنوادى السياسية والثقافية، والنقابات والاتحادات المهنية، وكل ما يطلق عليه اسم المنظمات غير الحكومية أو الجمعيات العلمية بالإضافة إلى مجموع العلماء والأئمة وأهل الرأى، ومنظمات حقوق الإنسان والمرأة والبيئة والخدمات الاجتماعية وتنظيم

الأسرة ودور المناسبات والعيادات الأهلية... الخ. فالمجتمع يولّد مؤسساته وتنظيماته فى إطار القانون الذى ينظمها وتحت إشراف الدولة حتى تتحقق الأهداف ولا تتناقض الاختصاصات مع مؤسسات الدولة.

الدولة والمجتمع بهذا المعنى واقعان وضرورتان. الأولى صورية والثانية مادية. الأولى من أعلى والثانية من أدنى، الأولى لتحقيق الوحدة فى المجتمع، والثانية لتحقيق التعددية فيه. وسيطرة الدولة على المجتمع تقضى على حرية القول والعمل. وسيطرة المجتمع على الدولة تقضى على هيبة الدولة وقوتها فى الداخل والخارج، وتتحول إلى جماعات ضاغطة أو صراع قوى دون تجسيد لإرادة المجموع. فالقضية إذن ليست على التبادل، أولوية الدولة على المجتمع أو أولوية المجتمع على الدولة بل قيام الدولة والمجتمع معا، دولة قوية ومجتمع قوى.

ويظل السؤال: أى دولة؟ وأى مجتمع؟ الدولة هى الدولة القوية فى الداخل والخارج التى تعطى المواطن الأمن السياسى فى الداخل والأمن القومى فى الخارج، وليست الدولة الرخوة التى تنال منها قوى المعارضة فى الداخل بالتجريح والسب العلنى أو بالطعن فى الشرعية القانونية أو بالعنف المسلح ضد الأفراد والمؤسسات أو الدولة الرخوة فى الخارج التى تتحالف مع أعداء الوطن تتبعه فى مخططاته حفاظا على النظام السياسى.

وهى الدولة التى تحقق الانسجام الوطنى والوفاق القومى والتى تجمع الناس على كلمة سواء فى ميثاق شرف أخلاقى سياسى اجتماعى، لايستبعد أحدا تخوينا أو تكفيرا، ولا يستأثر بالسلطة حزب واحد، ولا يكمم فم، ولا يقصف قلم.

وهى الدولة التى تجسد مصالح الأغلبية الصامتة، وتدافع عن الملكية العامة لوسائل الإنتاج التى تمس كل مواطن فى حاجاته الرئيسية، مثل الصناعات الكبرى، والبنوك الوطنية، والقطاع العام المنتج، والتخطيط الاقتصادى.

وهى الدولة التى تدافع عن استقلالها الذاتى ضد جماعات الضغط فى الداخل وقوى الهيمنة والسيطرة فى الخارج، ولا ترهن إرادتها الوطنية بسبب الغذاء أو السلاح، الأمن الغذائى أو الأمن القومى. تعتمد فى تنميتها على مواردها الذاتية، ومشاركة جماهيرها، وتخطيط علمائها حتى تصل حد الاكتفاء الذاتى.

وهى الدولة التى يدين لها المواطن بالولاء لأنه يشعر فيها بحريته الفردية وبديموقراطية الحكم، وبالتعددية الفكرية والسياسية وبقدرته على الاختيار. وفى نفس الوقت هى الدولة التى ترعى الجبهة الوطنيةِ وتوحد قواها السياسية، وتجسد إرادة المجموع.

وبهذا المعنى للدولة وللمجتمع يصح النقاش، ويصبح حوارا وطنيا بين الحاكم والمحكوم وليس موضوعا منقولا من ثقافة إلى ثقافة، ضرره أكثر من نفعه. دولة قوية فى الداخل والخارج، ومجتمع قوى فى الداخل، ﴿أشداء على الكفار، رحماء بينهم﴾ (٤٨ : ٢٩).

٧- إرهاب الأفراد وإرهاب الدول

كثر الحديث عن الإرهاب هذه الإيام حتى تحول إلى نوع من الإرهاب فى أجهزة الإعلام. وياويل المفكرين والكتاب إن لم يتعرضوا للإرهاب بالإدانة، وإن لم ينادوا بعقاب الإرهابيين! وتُعقد المؤتمرات الدولية على أرض ضحايا الإرهاب كما حدث فى مؤتمر شرم الشيخ الأخير لإدانة الضحايا وترك المجرمين، إدانة إرهاب الأفراد وتبرئة إرهاب الدول.

صحيح أن الإرهاب أيا كان مصدره يأخذ البرئ بجرم المتهم، فيقتل الأطفال والنساء والشيوخ، ويسفك دماء الأبرياء كما يحدث فى إسقاط الطائرات، وإلقاء المتفجرات فى الحدائق العامة، وتفجير المبانى الحكومية. لذلك استثنى الإسلام من القتال الأبرياء والضعفاء، النساء والأطفال والشيوخ من الحرب. فالقتال لمن يقاتل وعلى من يقاتل.

ولا أحد يفكر فيما يسمى بالإرهابى لماذا صار كذلك؟ يستعمل العنف مع الآخرين ومع نفسه، ويحول نفسه إلى قنبلة بشرية تنفجر فى نفسه قبل أن تنفجر فى أعدائه. يُخرج من سياقه وكأنه يولد إرهابيا ولا يجعله المجتمع إرهابيا.

لقد فقد أرضه واغتصبت منه، وضاع وطنه وأصبح لاجئا سياسيا فى العالم. هُدّم منزله، وفقد عائلته. ضاع منه ماضيه، ولم يعد له حاضر ولا مستقبل. خسر كل شئ. ولم يبق له إلا أنفاسه التى لايدرى لمن يعطيها. فيستشهد بما تبقى منه لعله يحصل على كل شئ فى السماء بعد أن خسر كل شئ فى الأرض. وكما يقال فى المثل العامى المصرى "ضربوا العورة على عينها قالوا خسرانة خسرانة".

وماذا عن المقاومة المشروعة؟ هذا الفدائى فى جنوب لبنان أو على الجولان أو على روابى فلسطين حيث احتلت أرضه أو انتزع منها وأصبح لاجئا فى الخارج أو محتلا فى الداخل أو نزيل مخيمات على الحدود، يوصف بأنه إرهابى عندما

البيان ١٩٩٦/٨/٥ (لم يُنشر).

يدافع عن نفسه، ويقاوم المحتل، ويحرر أرضه، والمحتل الغاصب نفسه هو الضحية تقام له المؤتمرات للدفاع عنه!

وإرهاب الدول لا يتمثل فقط فى الدولة الأخرى، إسرائيل أو أمريكا بل قد يأتى ايضا من الدولة ـ الوطن على الأفراد والجماعات. ليس فقط إرهابا من الخارج بل يكون أيضا إرهابا من الداخل.

فالدولة فى الداخل تسيطر على كل شئ، على السياسة والاقتصاد والإعلام والثقافة والتعليم. وكما قال نجيب محفوظ على لسان أحد أبطاله "لاتسبوا الله فإن الله هو الدولة". تسيطر على الأحزاب والحياة البرلمانية. بل إن أحزاب المعارضة أيضا إما تدور فى كنف الدولة أو مهمشة على حياة الدولة غير مؤثرة فيها.

هذه الدولة ـ الوطن ترهب المواطن صباحا ومساء بنظام اقتصادى اشتراكى أو رأسمالى لم يختره، وبتوجهات سياسية فى السلام والحرب لم يُستشر فيها، وبمجموعة من القوانين فى حياته العامة تتغير كل يوم لم يُسأل عنها، وبمناهج فى التعليم يئن منها، وبإعلام مفروض عليه يدور حول خصال الرئيس وإنجازاته وتبرير سياساته من ناحية ثم الإسفاف فى الأعلانات والبرامج الدينية والترفيهية من ناحية أخرى، يدور حول الدين والجنس والسلطان، وليس حول الدنيا والناس ومصالح الشعوب.

ولا يُسمح لكافة القوى السياسية والتيارات الفكرية بالتعبير الشرعى وبحرية تكوين الأحزاب إلا بموافقة السلطان، يختار من لا يُمثل أحدا ولا وجود له فى الشارع السياسى فيعطيه الشرعية، ويمنع من يمثل الشارع السياسى ويحكم عليه باللاشرعية. فإذا ما حاول التعبير عن نفسه فكريا وسياسيا اتهم بالانقلاب على نظام الحكم، وقُدم إلى المحاكم العسكرية.

إرهاب الأفراد المنظور قد يكون رد فعل على إرهاب الدولة ـ الوطن غير المنظور، ويستمر مسلسل العنف والإرهاب المتبادل بين الدولة والأفراد فى تصاعد

مستمر، كل طرف يعتبر الآخر هو المسؤول. ولو أعطت الدولة حق التعبير الحر والتنظيم السياسى الشرعى للأفراد لقضى على إرهاب الأفراد وبالتالى على إرهاب الدولة. ولكن مازال الشائع حتى الآن هو أن الإرهاب ما يرتكبه الآخر ضدى وليس ما أرتكبه أنا ضد الآخر. الآخر متهم وأنا برئ. الآخر الجلاد وأنا الضحية.

وعندما يذكر الإرهاب فأنه يشار إلى المنطقة العربية أو إلى الشرق الأوسط أو إلى الإسلام حتى ارتبط فى الإعلام الغربى الإسلام والإرهاب ارتباطا عضويا. وأصبحت صورة العربى الإرهابى، وصورة الإسلام العنف، وصورة الشرق الأوسط القنابل البشرية وسفك دماء الأبرياء.

وماذا عن الإرهاب فى أوربا ضد العرب والمسلمين؟ إن إرهاب فرنسا للمسلمين الجزائريين داخل الأراضى الفرنسية بداية بالاغتيال بالشبهات دون محاكمات قانونية فى بلد القانون والدستور حتى منع الحجاب فى المدارس فى بلد الحريات العامة هو إرهاب للدولة ضد الأفراد والجماعات. وإرهاب الأحزاب النازية الجديدة فى ألمانيا للمسلمين الأتراك وحرقهم فى دورهم ومحالهم إرهاب فى بلد التنوير والعقلانية. والقنابل التى يلقيها الجيش الجمهورى الإيرلندى، الكاثوليك ضد البروتستانت، ليس إرهابا ولا يسمى إرهابا، ولا أحد يربط بين المسيحية والإرهاب، ولا أحد يتحدث عن الاستعمار البريطانى لأيرلاندا الشمالية، وسيطرة طائفة على طائفة. ولا أحد يتحدث عن المافيا الإيطالية فى الجنوب وفى صقلية وتأجير العنف والقتل لمن يشاء الدفع وتنظيم الجرائم.

ومنذ ثلاث سنوات يُذبّح المسلمون فى البوسنة والهرسك على أيدى الصرب، لتطهير أوربا الشرقية من المد الإسلامى التركى، وتُسفك دماء النساء والأطفال والشيوخ ورجال الدين، ويُقضى على استقلال دولة، عضوا فى الأمم المتحدة، ولا أحد يسمى ذلك إرهابا، بل تطهير الصرب للمسلمين من أجل تكوين إمبراطورية الصرب الكبرى والقضاء على المد الإسلامى فى أوربا معقل المسيحية.

وتكرر النازية الجديدة الصربية فى البوسنة وفى أواخر القرن العشرين ما قامت به النازية الصهيونية القديمة فى فلسطين فى منتصف القرن، استئصال شعب، وطرده من وطنه وخلق دولة جديدة باسم الشرعية الدولية وبتواطؤ الدول الكبرى والموافقة على سياسة التطهير العرقى.

بل لقد كان الإرهاب أساسا لنشأة الدول مثل إسرائيل فى فلسطين. وأصبح قدماء الإرهابيين حكاما وقادة يعترف بهم العالم ويتم التصفيق لهم داخل الكونجرس الأمريكى، بلد "إعلان الاستقلال" وابنة الثورة الفرنسية. ويصبح تاريخ الدولة محددا بدير ياسين فى البداية وقانا فى النهاية.

تحتل إسرائيل أرض ثلاث دول، وتطرد السكان، وتهدم المنازل، وتخطف القادة، وتغتال المجاهدين، ويُعتبر ذلك حق مشروع للدفاع عن النفس وليس إرهابا فى حين أن المجاهدين الذين يقومون بالدفاع عن أوطانهم هم الإرهابيون. تكسير عظام الأطفال ليس إرهابا، وإلقاء الكاتيوشا من المقاومة اللبنانية على شمال فلسطين المحتل إرهاب.

واضطهاد اليهود الشرقيين، واستعباد "الفلاشا" واعتبار دمهم الأسود أقل نقاء من الدم الأبيض لليهود الغربيين، واستقصاء اليهود العرب من الحياة العامة والقيادة السياسية والعسكرية، واغتيال رابين ليس إرهابا. أما تفجير شاحنة مملوءة بجنود الاحتلال أو مركبة لدورية أو اغتيال مستوطن مدجج بالسلاح فهو إرهاب.

ساد هذا المعيار المزدوج، وأصبح عملة شائعة فى أجهزة الإعلام الغربية. إرهاب الدولة ليس إرهابا وإرهاب الأفراد هو الإرهاب. عدوان القوى ليس إرهابا ومقاومة الضعيف هو الإرهاب. سطوة الغرب على غيره من الشعوب دفاع عن القيم والمبادئ، الحرية والديموقراطية، ومقاومة الشعوب دفاعا عن حقوقها عنف وإرهاب.

والآن، يأتى دور الدولة العظمى، الولايات المتحدة الأمريكية، التى أصبحت فى الآونة الأخيرة هدفا لإرهاب الأفراد سواء فى الرياض أو فى الظهران أو

فـى لوكيربـى أو فـى أوكلاهوما أو فى أطلانطـا أو تفجير الطـائرة الأخير فـى عرض المحيط.

عندما كان العالم ذا قطبين، وكان المعسكر الاشتراكى موجودا كـانت أمريكـا تشـعر بوجـود قـوة أخـرى تحـد مـن قوتهـا وتمثـل تحديـا لهـا. وبعـد انهيـار الاتحـاد السـوفيتى، تفـردت أمريكـا بالعـالم، ووصـل التـاريخ إلـى نهايتـه، وبـدأ صـراع الحضـارات. واتخـذت أمريكـا مـن الإسـلام عـدوا بديـلا عـن الشـيوعية تصارعـه وتحاصره وتهدده وتشوهه حتى تستأسد بالعالم وتقضـى علـى احتمـال وجـود بدائل عنها فى أقطـاب جديـدة فـى المسـتقبل. تحـاصر العراق بعـد أن تحـررت الكويـت، وتحاصر ليبيا أخذا بالشبهات، وتهدد بحصار السـودان وإيـران. تربـط بيـن الإسـلام والعنف والإرهاب والعدوان والنيل من حقوق الإنسان والمـرأة والطفـل. وبـدأت تلعب دور شرطى العالم. تتعالى على باقى الشعوب، وتستغل المنظمات الدوليـة لتنفيذ سياساتها.

وبدأ الـالم يضـج مـن هـذا المـارد الـذى يهـب ويمنـع، يوالـى ويعـادى، يـأمر وينهى، يعد ويتوعد. فالوعى البشرى بطبيعته يرفض التجبر والاستكبار، ومن يحـل نفسه محل الله، ويتمثل صفاته وارادته وقدرته. فبدأ النيل من هذا المارد فى الداخـل قبل الخارج. وأصبح الإرهاب الداخلى من المليشيات المسلحة العنصرية فى الداخـل صاحب اليد الطولى فى رد المـارد إلـى حـدوده الطبيعيـة فـى أوكلاهومـا وأطلانطـا وربما بإسقاط الطائرة فى المحيط بصـاروخ أو بقنبلة، وقبلها اغتيال مارتن لوثركنج وجون كيندى كاغتيال الدولة لزعماء الفهود السـوداء. فلعـل البـالون المنتفـخ يسـرب بعض هوائه بالإرهاب الداخلى، ويقل تخـايل المـارد ﴿ولا تمـش فـى الأرض مرحـا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا﴾ (١٧ : ٣٧).

ولما كان الإرهاب باستمرار يأتى مـن الآخـر وليـس مـن النفـس سـرعان مـا تلصـق أمريكـا الإرهـاب بالشـرق الأوسـط وبالإسـلام وليـس بـالداخل، بالعنصريـة

المسلحة البيضـــاء. بـل إن تفجير مركـز التجـارة الدولـى إنمـا تـم فـى الداخل بفعل عناصر من الداخل، وطبقا لنموذج العنف فى الداخل، وبعناصر متعاونة مـع أجهـزة المخابرات الأمريكية فـى الداخل منـذ حـرب أفغانستان حتـى ولـو كـانت الأداة فـى الظاهر من الخارج، من المهاجرين.

ولكن من المهاجر؟ أليس الشـعب الأمريكـى كلـه مـن المهـاجرين؟ ألا تعطـى أمريكا البطاقة الخضراء للمهاجرين كى يصبحوا مواطنين؟ هل حققت أمريكـا حلـم "إناء الانصهار" أم أنها مازالت مجموعة من المهاجرين؟ فلأيها تكون الغلبة؟

opeikandl.com

٨- الحصار والتهديد

لاتوجد منطقة محاصرة هذا الحصار الشديد من كل الجهات ومهددة من الداخل عبر التاريخ قدر المنطقة العربية. ومازال الحصار قائما، والتهديد مستمراً باسم الشرعية الدولية ومواثيق الأمم المتحدة وقراراتها، وعشرات البنود والقرارات الأخرى، غير مطبقة فى حالات أخرى كإسرائيل تضرب بها جميعا عرض الحائط، دون حصار عليها أو تهديد لها.

صحيح أن كوبا محاصرة أيضا منذ ثلاثين عاما أو يزيد، منذ انتصار كاسترو وجيفارا بحجة وجود نظام شيوعى بالقرب من السواحل الجنوبية الشرقية للولايات المتحدة، ووجود صواريخ سوفيتية على أرضها مما يهدد أمنها. وبالرغم من انهيار الاتحاد السوفيتي، وتطوير الصواريخ الأمريكية، وسحب الصواريخ السوفيتية، وبالرغم من محاولة غزو كوبا منذ خليج الخنازير فى عهد كيندى إلا أن الحصار مازال مضروبا عليها.

والسبب فى كلتا الحالتين واضح، العرب وكوبا، التكفير عن ذنب الستينات عندما بدأت حركات التحرر فى العالم الثالث، فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، ضد الاستعمار القديم والجديد بزعامة قادة العالم الثالث منذ مؤتمر باندونج ١٩٥٥ حتى مؤتمرات بلجراد والقاهرة والجزائر لدول عدم الانحياز. استشهد جيفارا فى كولومبيا، وحوصرت كوبا منذ زمن طويل، وكوبا مازالت صامدة، وأوربا تريد رفع الحصار، وتختلف مع الولايات المتحدة أكثر مما تختلف معها حول حصار العراق وليبيا. وتهديد السودان وإيران.

وباختفاء تيتو وعبد الناصر ونهرو بدأ التخطيط لحصار مراكز التحرر وعدم الانحياز. فحوصرت مصر منذ أوائل السبعينات من أجل إخراجها من المعركة، ونزع القلب عن الأطراف، وظهرت دعوات "مصر أولا" حتى عمت القطرية.

البيان ١٢/٨/١٩٩٦.

وظهرت النزعات الطائفية والعرقية بدعوى الدفاع عن حقوق الأقليات وحقوق الإنسان فى المنطقة كلها. وتمزقت يوغوسلافيا وتفتتت إلى ثلاث دول. ثم تم تمزيق احداها، البوسنة والهرسك، بتواطئ بلجراد بعد أن دار عليها الزمن، من الشيوعية الوطنية إلى القيصرية والطائفية. والهند قنبلة موقوته بعد مسلسل الاغتيالات، إنديرا غاندى، راجيف غاندى، واحتمالات تفجير مئات القوميات واللغات والطوائف والمذاهب والديانات والعودة إلى الاقتتال بين المسلمين والهنود دون غاندى، وبين الهنود والسيخ. وكشمير فوهة بركان فى الشمال، وسيرلانكا قاعدته فى الجنوب. وباكستان كقوة سياسية، والملايو وأندونيسيا كقوتين اقتصاديتين فى الطريق، طريق أفغانستان. ثم يتم التحول إلى القلب، إلى مصر وسوريا والعراق فى طريق لبنان والجزائر.

وبعد أن رفع العالم العربى الراية فى الخمسينات والستينات، وأخفضها فى السبعينات والثمانينات فإنه نكسها كلية فى التسعينات، ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين. رُفعت الأعلام مع بدايات حركات التحرر الوطنى متزامنة مع الثورات العربية، وخُفضت باختفاء عبد الناصر ثم نكست كلية بعد انقلاب الثورات على نفسها مائة وثمانون درجة، من مقاومة الاستعمار والصهيونية فى الخارج ومناهضة الإقطاع والرأسمالية فى الداخل إلى الصلح والتحالف معهما، ومن الدولة الوطنية المستقلة إلى الدولة التابعة، ومن التخطيط الوطنى لمظاهر النشاط الاقتصادى إلى الخصخصة وتهميش دور الدولة والبنك المركزى والرقابة على حركة الأموال فى الداخل والخارج.

وبدأ حصار العالم العربى بعد تنكيس الأعلام، العراق فى الشرق مع تهديد إيران بالحصار والضرب باعتبارها مركزا يأوى الإرهاب ويصدره إلى جنوب لبنان عبر سوريا. ويتم حصار ليبيا فى الغرب أخذا بالشبهات، وتهديد مصر بفتح حدودها البرية معها ولاستقبالها رئيسها بطيرانه المفاجئ من قطر عربى إلى قطر عربى آخر وفوق الصحراء الغربية. فقد أصبح رؤساء البلاد سجناء فى أقطارهم،

يتجولون فيها خشية وهربا من الرصد والإنذار وتحت التهديد بالقتل والاغتيال والاصطياد الفردى بعد فشل غارة الطيران الأولى فى الثمانينات.

ويتم تهديد السودان فى الجنوب، وتغذية الانفصاليين فى جنوب الجنوب حيث يبدأ نهر النيل، شريان الحياة فى مصر. وتقترح إسرائيل على الحبشة إقامة السدود على النيل الازرق لتجفيف منابع النيل. ويتم حصار باب المندب، وتتربص أريتريا باليمن على مداخل البحر الأحمر لخنق مصر والسعودية والانفتاح على إيلات وإسرائيل. فلم يعد البحر الأحمر بحرا عربيا على ضفتيه شرقا وغربا فى السعودية ومصر وفى شماله وجنوبه فى اليمن ومصر بل بحرا إسرائيليا فى الجنوب فى جزر حنيش وفى الشمال فى إيلات، وما يتم تخطيطه حاليا من إنشاء قنوات بديلة عن قناة السويس.

وفى الشمال يكتمل الحصار عن طريق الحلف الإسرائيلى التركى والضغط على سوريا بعد اقتطاع لواء الاسكندرونة لحساب تركيا واحتلال مرتفعات الجولان لحساب إسرائيل، وحصار شمال العراق وكل مناطق الأكراد بدعوى الدفاع عن أكراد العراق فى نفس الوقت الذى تستأصل فيه تركيا الأكراد الأتراك، ويستعمل أكراد إيران لصالح إيران.

وبعد أن يتم حصار العالم العربى من الشرق والغرب والجنوب والشمال يتم ضرب القلب والطعن فى المركز فى مصر والشام. فسيناء منزوعة السلاح، وفلسطين محتلة، والحكم الذاتى محاصر فى الداخل، وخبز فلسطين يأتى من العدو وعن طريق العمالة الفلسطينية فى حالة السماح لها بتجاوز الأرض المحتلة فى ١٩٦٧ إلى الأرض المحتلة فى ١٩٤٨. ومن إحكام الحصار فى الخارج والطعن فى الداخل يتفتت العالم العربى، من أقطار إلى دويلات، فى العراق والخليج والسعودية واليمن ومصر وسوريا ولبنان وكل أقطار المغرب العربى والسودان. ثم تشغلها كلها معارك الحدود. فلا يوجد قطر عربى إلا وله مشاكل حدود مع القطر

العربى المجاور. ويتحقق الحلم القديم، الاستيلاء على فلسطين أيام الحروب الصليبية، ومحاصرة العالم العربى من البحار أثناء الاستعمار الغربى الحديث.

والنتيجة من هذا كله أبعد من احتلال الأراضى وحصار الدول وتهديدها بل أبعد من ذلك بكثير؛ جرح الكرامة العربية. فبدلا من شعار الستينات "أحرار ياعرب أحرار، فى بلادنا كرام أسياد" يأتى واقع التسعينات، "سجناء ياعرب سجناء، فى بلادنا عبيد أذلاء". وقبل العالم العربى ممثلا فى بعض نظمه سياسات التركيع أو التجويع أو التخويف، تلويحاً بقطع المعونات، وتهديدا بإسرائيل أو تفكيرا فى إيجاد البدائل الشعبية عن النظم الحالية، تحالف الوفد والإخوان. أصبح الهدف من الحصار والتهديد كسر الإرادة الوطنية المستقلة، وإدخال الجميع بيت الطاعة باسم النظام العالمى الجديد، والكوكبة، والعولمة، واقتصاديات السوق، ونظم المعلومات، واتفاقية الجات، والعالم قرية صغيرة، يتربع فوقها القطب الواحد.

ومن الطبيعى أن يكون الحصار والتهديد للعالم العربى فى عالم ذى قطب واحد هو الولايات المتحدة الأمريكية. فالمنطقة العربية الإسلامية هى المنطقة التى لم تمت بعد. فمازالت حية بنضالها وإبداعها والقدر الهائل من تساؤلات شبابها وشيوخها، أين المصير؟ واحتمال ظهور قطب ثان يتحدى القطب الأول فيها. فآسيا مشغولة بنهضتها الصناعية وتقدمها الاقتصادى وتبحث عن هويتها وثقافتها الوطنية كدعامة لنهضتها الصناعية، على الأمد الطويل خشية التهديد والحصار.

العالم العربى منطقة الحضارات القديمة، مصر وبابل وآشور وكنعان. وهى التى مازالت تحفظ بقاءه، وتمده بعمق تاريخى لايتوافر فى غيره من المناطق. وهو مهد الديانات الكبرى، وموطن الأنبياء، ومهبط الرسالات. غرز فى وجدانه التوحيد مقرونا بالعدل منذ حمورابى وآمون حتى موسى وعيسى ومحمد. ربط الدنيا بالآخرة، والزمان بالخلود، وعرف الحساب والجزاء، والاستحقاق، والثواب والعقاب.

وهو الذى أنشأ حضارة زاهرة فى العلوم الرياضية والطبيعية والإنسانية، أثّرت فى الغرب فى العصر الوسيط، وكانت وراء نهضته الحديثة. ومآثر العمران فيه مازالت واضحة فى العمارة والمدن، واللغة والأدب والثقافة. استطاع الصمود فى مواجهة الصليبيين من الغرب، والتتار والمغول من الشرق، ثم الاستعمار الأوربى الحديث من الغرب مرة ثانية سواء الاستعمار العسكرى المباشر أو الاستعمار الاستيطانى فى فلسطين. ومازال مبدعا ثقافيا وأدبيا، يموج بالتساؤلات، ويزخر بالهموم، ويرتبط بأرض الوطن، ويعشق التاريخ، ويحلم بالمستقبل.

وبالإضافة إلى جذور الماضى هناك إمكانيات الحاضر، الامكانيات البشرية والثروات الطبيعية والعقول الإبداعية والسواعد ووفرة العمالة. فأكبر نسبة من المؤهلات العليا وأهل الاختصاص فى العالم العربى الذى يصدّر الهجرات للخارج. وأكبر قدر من الثروات والأموال فى العالم العربى فى البنوك الأجنبية من عوائد النفط. وأكبر قدر ممكن من العمالة متوافرة فى العالم العربى فى مصر وفلسطين والشام واليمن والمغرب وتونس والسودان. فالعالم العربى متكامل بثرواته البشرية وموارده الطبيعية.

فهو الوحيد المرشح لأن يخلق قطبا ثانيا أمام الولايات المتحدة الأمريكية. هو البديل للاتحاد السوفيتى، القادر على إعطاء نمط حياة جديد ومثل جديدة ورؤى جديدة أكثر إنسانية وعدلا من رؤى الغرب وطموحاته القديمة. فهو بديل محتمل فى المستقبل. يعادل حجم الولايات المتحدة مساحة وسكانا وثروات، ويعادل حجم أوربا الموحدة. وإمكانيات الوحدة لديه متأصلة الجذور وإن عاقتها الموانع الوقتية. فمازال المجتمع العربى فى عصر النهضة الثانى بعد عصر النهضة الأول فى القرن الماضى وتعثره فى هذا القرن. وقد حاول محمد على تحقيق الحلم فتكالبت عليه قوى الاستعمار القديم لتحجيمه. وعاود عبد الناصر تحقيق المشروع. فانقضت عليه قوى الاستعمار الجديد حتى تتوب المنطقة عن أحلامها بالمرة.

إن آسيا الصناعية مشغولة بنهضتها لمنافسة أوربا الغربية والولايات المتحدة واللحاق بالدول الصناعية السبع وبمساعدة رأس المال الغربى. وبقدر المعدل العالى للتقدم الذى يبلغ ٩٪ قبل الصين بقليل تعانى من نقص فى المشروع الثقافى النهضوى، وتعانى من الشعائرية والتقليدية والمحافظة فى الثقافة. وتشعر بأنها على أطراف العالم العربى، لاتتحدث العربية، ونموذجها ومصدر علمها الأزهر الشريف.

وأمريكا اللاتينية ولى عصر جيفارا بها ولاهوت التحرير عند توريز وروميرو، ومشغولة بالمخدرات والجنس والفقر. وتقتل الأطفال مع الكلاب الضالة. وقُضى على ثقافاتها الوطنية الهندية القديمة فأصبحت مجتثة الجذور. ومن لاماضى له لاحاضر ولامستقبل له.

وأفريقيا مهددة بالأمراض، الإيدز وغيره، والتصحر، والجفاف، والفقر، والمجاعة، والقحط، والحروب القبلية التى تقضى على الملايين، وبمعارك الحدود، وبالنظم التسلطية، وبالثقافات التقليدية عند العامة، والتغريب والتبعية للغرب عند الخاصة.

وهنا تبدو الأولويات فى الوطن العربى، بداية بفك الحصار عن العراق وليبيا، والوقوف فى مخاطر التهديد ضد السودان ودول الجوار، ولم الشمل العربى، والوصول إلى الحد الأدنى من الإجماع العربى، وأقل القليل من مظاهر الوحدة العربية، حرية التجارة، وتبادل المطبوعات، وإلغاء التأشيرات، والحوار مع دول الجوار الإسلامية والأفريقية الآسيوية، وتحييد الغرب، والاتجاه نحو الشرق من أجل إيجاد التوازن فى علاقات الوطن العربى بين الغرب والشرق، وبين قواه الذاتية الحاضرة والمستقبل وقوة الولايات المتحدة الأمريكية.

ولماذا لا يحلم العربى ولديه الشعر والخيال؟

o b e i k a n d i . c o m